بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الأردنية
كلية الدراسات العليا

٣-٤
١٧-٥
٦١٣

صدى الغزو المغولي في النثر الفني العربي

من القرن السابع الهجري حتى أوائل القرن التاسع الهجري

إعـــداد
نكريات سليمان موسى الحمامرة

عميد كلية الدراسات العليا

إشـــراف
الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير
في اللغة العربية بكلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية

تمـــوز ١٩٩٦ م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ١٩٩٦/٧/٣١م ، وأجيزت .

أعضـــــاء اللجنـة	التوقيـــع
١ - الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم (مشرفاً)	.....
٢ - الأستاذ الدكتور محمد بركات أبو علي (عضواً)	.....
٣ - الأستاذ الدكتور عبدالجليل عبدالمهدي (عضواً)	.....

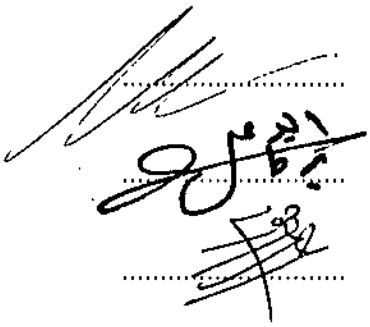

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهـــداء

إلى مَن علمني الحرف ...

إلى مَن جعل زادي العلم والخلق .. إلى أبي

إلى مَن أخذت بيدي ، وعلمتني الصبر .. وبدّدت عتمة المصاعب .. إلى أمي

إلى مثلي الأعلى .. أختي أماني

إلى الكلمة الرقيقة .. أختي ميساء

إلى كل من مدّ يد العون والمساعدة ووقف بجانبي ..

إلى كل مَن وهبني الحنان والحب ..

إلى الأهل والأصدقاء ..

إلى مَن رافقني مشوار التعب .. بصبره سهّل الصعب .. وبحبه وعطائه أنار الدرب ..

إلى رفيق عمري أسامة

إليهم جميعاً أهدي ثمرة عملي المتواضع

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكر وتقدير

أتقدم بوافر الشكر الجزيل ، والامتنان العظيم إلى أستاذي الكريم الدكتور محمود إبراهيم لإشرافه على هذا البحث .

كما أخص بالشكر الجزيل الأستاذ الفاضل الدكتور محمد بركات أبو علي والأستاذ الفاضل الدكتور عبدالجليل عبدالمهدي لتفضلهما بالاشتراك في مناقشة هذا البحث ، وتقديم الملاحظات والآراء العميقة والدقيقة التي أفدت منها كثيراً وأخرجت البحث بصورته النهائية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس المحتويـات

الموضـــوع	الصفحة
- قرار لجنة المناقشة	ب
- الإهـداء	ج
- شكر وتقدير	د
- فهرس المحتويات	هـ
- الملخص باللغة العربية	ز
- المقدمـة	ط
التمهيد : نظرة في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية	٢-١٠
* الحياة السياسية	٢-٦
* الحياة الاجتماعية	٦-٧
* الحياة الثقافية	٧-١٠
الفصل الأول :	١٢-٤٠
* مواكبة النثر الفني العربي لأحداث الغزو المغولي	١٢-٢٦
* المراسلات بين سلاطين المسلمين وملوك المغول	٢٦-٤٠
الفصل الثاني : النثر الفني العربي إبّان الغزو المغولي	٤٢-٩٨
* الدعوة إلى الجهاد	٤٢-٤٩
* تصوير المعركة	٤٩-٦١
* الأدوات الحربية والسلاح	٦٢-٦٦
* صورة الجيش المسلم	٦٧-٧٠
* صورة البطل المسلم	٧٠-٧٨
* صورة المغول	٧٨-٨٦
* رثاء المدن	٨٦-٩٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث: النثر الفني العربي إبّان الغزو المغولي - دراسة فنية ١٠٠-١٦١

* بنية العمل الأدبي : الرسالة ، الخطبة ، المقامة ١٠٠-١١٦

* الأسلوب : ١١٦-١١٨

- المحسّنات البديعية : السجع ، الجناس ، الطباق والمقابلة ١١٩-١٢٦

- المصطلحات وأسماء الأعلام ١٢٦-١٣١

- أثر القرآن الكريم ١٣١-١٣٦

- أثر الحديث الشريف ١٣٧-١٤٠

- أثر الشعر العربي ١٤١-١٤٩

- التأثر بالمثل وأقوال الآخرين ١٤٩-١٥٢

* الصورة الفنية ١٥٢-١٥٧

الخاتمـــة ١٥٨-١٦٢

المراجع ١٦٢-١٧٨

الملخص باللغة الانجليزية ١٧٩-١٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الملخـص

صدى الغزو المغولي في النثر الفني العربي

من القرن السابع الهجري حتى أوائل القرن التاسع الهجري

إعـداد

ذكريات سليمان موسى الحمامرة

إشراف

الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم

تناولت الرسالة أثر الغزو المغولي في النثر الفني ، من القرن السابع الهجري حتى أوائل القرن التاسع الهجري ، هذا الغزو الذي لاقى أصداءً كبيرة في النثر ، فكانت الرسالة ، والخطبة ، والمقامة وغيرها كان للغزو المغولي أثر فيها .

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز قيمة النثر الفنّي ابّان هذا العصر ؛ هذا النثر الذي كان هوية تاريخية توثق أهم الأحداث آنذاك .

ومن أهم أهدافها أيضاً : التعريف بأهم الكتّاب والمؤلفين أثناء هذه الحقبة الزمنية .

وتتألف الرسالة من ثلاثة فصول وتمهيد ، وقد أشرت في التمهيد إلى الظروف السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والثقافية السائدة آنذاك .

في الفصل الأول ، تتبعت المصادر الأدبية ، والتاريخية ، وكتب السير والتراجم ، والرحلات ، في رصد أحداث الغزو المغولي من حروب ودمار وتخريب ، كما رصدت أهم المراسلات التي دارت بين سلاطين المسلمين وملوك المغول ، والتي تمثلت بصور عديدة منها خطابات الوعيد والإنذار ، وخطابات الصلح ، والهدن ،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وغيرها .

وفي الفصل الثاني تناولت النثر الفني ابّان الغزو المغولي ، من حيث المضمون ، إذ بحثت في جزئيات عديدة كالدعوة إلى الجهاد ، وتصوير المعركة التي رصدت من خلالها لقاء الفريقين ، وتصوير النصر . كما بينت صورة القائد المسلم، وصورة الجيش المسلم ، ثم تناولت سمات القوة والوحشية والغرور من خلال الحديث عن صورة العدو المغولي ، ثم أتبعت ذلك بحديث عن المدينة الإسلامية قبيل الغزو المغولي ، ثم ما حلّ بها بعد الغزو المغولي من نهب ودمار وتخريب .

وفي الفصل الثالث ، عرضت للخصائص الفنية ، ولا سيّما الاقتباس من القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، والتأثر بالشعر العربي . وتحدثت عن بعض المحسنات البديعية ، وبروزها في أدب تلك الفترة .

وفي خاتمة الرسالة ، عرضت لأهم النتائج التي تجلّت وبرزت من خلال هذا البحث ، كان من أبرزها : مواكبة النثر الفني لمعظم أحداث الغزو المغولي ، مبرزاً أسباب الغزو ونتائجه على المسلمين ومدنهم وثغورهم ؛ أضف إلى ذلك تأثير الغزو المغولي في تنوع أساليب الكتّاب آنذاك .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقدمـــة

احتلّ المغول بقاعاً من العالم الإسلامي ، وقد كانت حملات المغول على العالم الإسلامي قاسية مدمِّرة ، وحشيّة لا رحمة فيها ، مما جعل الأدباء يرصدون هذه الأحداث ، ويسجلون المعارك ، ويتغنوْن بالانتصارات ، ويمجّدون الأبطال ، ويرثون مدنهم ، وينعوْن موتاهم .

وكان نتاج الأدباء ، موزعاً في الكتب التاريخية والأدبية وغيرها ، الأمر الذي شجعني على جمعها ودراستها ، ولا سيّما الأدب النثري ، إذ قام الباحث مأمون فريز جرار بدراسة سمّاها «صدى الغزو المغولي في الشعر العربي» .

ومن خلال اطلاعي على المصادر والمراجع الأدبية والتاريخية ، لاحظت قلة في الدراسات المتعلقة بأثر الغزو المغولي في النثر ، فلم أعثر إلا على مقالة للدكتور ناظم رشيد بعنوان «من آثار الغزو المغولي في الأدب العربي» أشار فيها بلمحة سريعة موجزة عن أثر الغزو المغولي في النثر العربي ، كما أشار الباحث خالد جبر في رسالته الجامعية «الرسالة الفنية في العصر المملوكي بمصر والشام» ، إلى أثر الصراع المغولي والفرنجي في الرسالة الجهادية فقط .

ومن الجدير بالذكر أن الباحث محمد ماهر حمادة قد جمع عدداً من الرسائل التي دارت بين المسلمين والمغول في كتابه «الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي» .

والملاحَظ أن أثر الغزو المغولي في النثر العربي ، لم يُدرس - من خلال المراجع والدراسات العربية * - دراسة وافية علمية عميقة ، بشكل كافٍ ، حيث ركز

---

* انظر د. محمود رزق سليم في كتابه «عصر سلاطين المماليك» ، م ٥ ، ص ١٢٣-١١٩ ، م٦ ، ص ٦٣-٨١ . ود. محمد زغلول سلام في كتابه«الأدب في العصر المملوكي»، ص٤٥-٨٧ .ود. عمر موسى باشا في كتابه «الأدب العربي في العصر المملوكي»، ص٤٥٢-٥٨٧ . ود.محمد كامل الفقي في كتابه«الأدب العربي في العصرالمملوكي» ، ص١٠٧-١٢٢. ود. فوزي محمد أمين في كتابه «أدب العصر المملوكي الأول» ، ص٧٣-١٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الباحثون على بيئة المكان وأثرها في النثر ، وأقسام النثر ، وترجمة لبعض مشاهير الشعراء والكتّاب ، وأهملوا أثر الغزو المغولي في النثر نفسه ؛ الأمر الذي شجعني – كما أشرت سابقاً – برصد النصوص والرسائل والعهود والخطب وغيرها من المصادر التاريخية والأدبية والقيام على دراستها أدبياً وفنياً .

لقد جاء هذا البحث في مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة ، وقد أشرت في التمهيد إلى خطر المغول الذي داهم العالم الإسلامي ، وقد تحدثت عن ظهور التتار في بلاد الإسلام ، ثم أشرت إلى أعمالهم القبيحة في المدن الإسلامية ، ولا سيّما في مدينة بغداد . ثم أشرت إلى الظروف السياسية آنذاك والحياة الاجتماعية والاقتصادية أيضاً ، كما أشرت إلى الحياة العلمية الثقافية ، كما تحدثت عن أهم العلماء والأدباء .

وبحثت في الفصل الأول في ثلاثة أمور ، حيث أشرت إلى رصد المصادر التاريخية والأدبية والسِّيَر وغيرها ، إلى الحديث عن غزو التتار لبلاد الإسلام .

أما الأمر الثاني ، فقد تتبعت المعارك التي جرت بين المسلمين والمغول ، منذ سنة ٦١٧هـ حتى سنة ٨٠٣هـ ، ورصدتها ممثلة عليها بالنصوص النثرية .

أما الأمر الثالث ، فقد رصدت فيه أهم المراسلات بين المسلمين والتتار ، ولا سيما مراسلات السلاطين المسلمين إلى ملوك التتار .

أما الفصل الثاني ، فقد بحثت فيه عن النثر الفني العربي من حيث المضمون ، وقد قسّمته إلى موضوعات جزئية : الدعوة إلى الجهاد ، وصدّ العدوان المغولي ، حيث أشرت إلى أهمية الجهاد وموقف العلماء منه ، وحثّ الكتّاب عليه .

ثم تحدثت عن سَيْر المعركة ووصف الانتصارات ، ثم أتبعت ذلك بحديث عن الأدوات الحربية والسلاح ، ثم أشرت إلى صورة الجيش المسلم ، كما أفردت حديثاً خاصاً عن صورة البطل المسلم ، وكان لا بد من الحديث أيضاً عن صورة العدو المغولي ، ثم اختتمت الفصل بالحديث عن المدينة الإسلامية قبيل الغزو وبعد الغزو

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المغولي .

أما الفصل الثالث والأخير ، فقد كان دراسة فنية للنثر الذي واكب أحداث الغزو المغولي ، من القرن السابع حتى أوائل القرن التاسع ، حيث بحثت في بنية الرسائل التي كانت بين المسلمين والتتار ، وبنية افتتاحها ، وحسن التخلص منها واختتامها .

ثم تحدثت عن مقدمات بعض النصوص النثرية الأخرى ، كالعهود .. ثم بحثت في الأسلوب الشائع المتبع آنذاك ، وأشرت إلى تأثير الطريقة الفاضلية فيه ، ثم فصّلت في الحديث عن المحسنات البديعية ، حيث تحدثت عن السجع والجناس والطباق والمقابلة ، إذ عرّفت كل فن بديعي ، وذكرت أنواعه وآراء بعض النقاد فيه .

ولاحظت شيوع المصطلحات العلمية والفنية وغيرها ، وأسماء الأعلام ، في النصوص النثرية ، لذا آثرت الحديث عنها .

ثم أتبعت ذلك بحديث عن تأثر الكتّاب بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وتناولت هذه الظاهرة من حيث : ١- اقتباس الكتّاب للآيات الكريمة كاملة أو جزءاً منها ، وكذلك الحديث النبوي الشريف. ٢- حلّ الآيات القرآنية والأحاديث النبوية .

ثم عرضت تأثر الكتّاب بالشعراء السابقين ، كما أشرت أيضاً إلى تأثرهم بنثر الآخرين من رسائل وأمثال وأقوال .

واختتمت هذا الفصل بالحديث عن الصورة الفنية ومصادرها .

أما في الخاتمة فقد أوجزت الحديث عن أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث .

لقد اعتمدت في بحثي على مصادر متنوعة أهمها : «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» للقلقشندي ، و«حسن التوسل في صناعة الترسل» للحلبي ،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

و«السلوك لمعرفة دول الملوك» للمقريزي ، و«الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر» لمحيي الدين بن عبدالظاهر ، وغيرها ...

وفي نهاية هذه الكلمة ، أتوجه بخالص شكري ، وعميق امتناني لأستاذي الفاضل الدكتور محمود إبراهيم ، لما قدّمه لي من عناية الأب الحاني ، ومن خبرة المعلم الكبير .

والله من وراء القصد .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التمهيـــــــد

نظرة في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التمهيـــد

كان العالم الإسلامي مع بداية القرن السابع الهجري ، مقسماً إلى أرض الخلافة ، ثم إلى الإمارات الخوارزمية في الشرق ، وفي الغرب كانت الإمارات الأيوبية وسلاجقة الروم وأتابكة الموصل واربل . والإمارات الغربية كانت أكثر ارتباطاً مع الخلافة وكانت الدول الخوارزمية ؛ الأكبر سعة والأكثر قوة دولة غير مستقرة .

واجه العالم الإسلامي في ظل هذه الظروف أخطاراً سياسية خارجية وداخلية ، أما الداخلية فتمثلت بالضعف والانقسام بين الدول الإسلامية ، وكثرة الفتن بين الناس وتبدّل الحكام وضعفهم هذا الذي أدّى إلى حدوث الأخطار الخارجية والتي تمثلت بخطرين كبيرين هما : خطر الغزو الفرنجي وخطر الغزو المغولي للعالم الإسلامي .

وفي هذا البحث المتواضع ، سأكون بصدد دراسة الخطر الثاني ، الذي داهم الأراضي الإسلامية .

تؤكد معظم المصادر التاريخية أنّ ظهور التتر في بلاد الإسلام ، كان في سنة ٦١٧هـ ، يقول ابن الأثير ، «في هذه السنة (أي سنة ٦١٧هـ) ظهر التتر إلى بلاد الإسلام» [١] ، ويقول الحموي : «وفيها [أي سنة ٦١٧هـ] كان خروج التتر من بلادهم» [٢] .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، مراجعة د. محمد الدقاق ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ج ١٢:١٤٩ .

(٢) ابن ظفير الحموي ، التاريخ المنصوري ، تحقيق د. أبو العيد دودو ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٨١ ، ص ٨٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول أبو شامة المقدسي أيضاً : «ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة وفي هذه السنة كان ظهور التاتار خذلهم الله» [١] .

لقد عبث هذا الجنس في البلاد الإسلامية ، وسفك الدماء وهتك الأستار ، وقام بأعمال فظيعة من التدمير والخراب . ففي سنة ٦١٧هـ قام بتخريب مدينة سَمَرْقَنْد [٢] [٣] ، وحاصرت التتار مدينة اربل في سنة ٦٣٤هـ ، حيث قتلوا أهلها وسبوا ذراريهم [٤] .

ووصلوا سنة ٦٥٠هـ إلى الجزيرة [٥] وسروج [٦] ورأس عين [٧] حيث قاموا كالمعتاد بأعمال التخريب والنهب [٨] .

أما أبشع وأفظع أعمالهم فقد كانت سنة ٦٥٦هـ حيث استولوا على أبهى مدن الإسلام ، مدينة بغداد ؛ التي خربوها وفتكوا بأهلها ونهبوا أموالها [٩] .

(١) ابو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، تعريف محمد زاهد الكوثري ، دار الجيل ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٤ ، ص ١٢١ . لمعرفة المزيد عن التتار انظر ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، م١:٣:١٠١ ؛ دائرة المعارف الإسلامية ، ج ٤:٥٧٦ ، والتر ، ميشيل ، لقاء ابن خلدون لتيمورلنك ، دار الحياة ، بيروت ، ص ٨٤ .

(٢) سمرقند : بلد معروف مشهور ، قيل إنه من ابنية ذي القرنين ما وراء النهر ، معجم البلدان ، ج٣:٢٤٦ .

(٣) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، تصحيح وفهرسة الأب أنطون صالحاني اليسوعي ، دار الرائد اللبناني ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٢٣٤ .

(٤) ابو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي ، البداية والنهاية ، تدقيق د. احمد أبو ملحم وآخرون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٧ ، ج ٣:١٦٧ .

(٥) الجزيرة : بين دجلة والفرات وتشمل ديار بكر ومضر ، معجم البلدان ، ج ٢:١٣٤ .

(٦) سروج : بلد قريب من حرّان من ديار مضر ، معجم البلدان ، ج ٣:٢١٦ .

(٧) رأس عين: مدينة مشهورة من مدن الجزيرة بين حرّان ونصيبين ودنيسر ، معجم البلدان ، ج٣:١٤ .

(٨) انظر البداية ، ١١:٢٠٦ ، النجوم الزاهرة ، ج ٧:٢٢ .

(٩) انظر اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، مطبعةمجلسدائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن ، الهند ، ١٩٥٥ ، ج ١:٨٥ ؛ والمقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر محمد مصطفى زيادة ، مطبعة لجنة التاليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٩ ، ج ١ ، ق ٢:٤٠٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم توجّهوا نحو مَارْدين [١] في سنة ٦٥٧هـ «فلم ينالوا منها شيئاً حتى حاصروا أهل مدينة مَيَافَارقين» [٢] [٣] ، ودخلوا في هذه السنة ديار بَكْر [٤] ونزلوا على مدينة آمد [٥] ، يريدون التوجه إلى حلب [٦] .

ونزل التتار على مدينة حلب في سنة ٦٥٨هـ حيث حاصروها ونهبوا أموالها وقتلوا أهلها [٧] ثم تصدى لهم قطز [٨] في عَين جَالُوت [٩] ليسجل بذلك أول انتصار للمسلمين على التتار .

واستولى التتر على مدينة سِنْجار [١٠] في سنة ٦٦٠هـ ، حيث خربوا سورها وقلعتها [١١] .

---

(١) ماردين : قلعة مشهورة على جبل الجزيرة المشرفة على دينسر ونصيبين ، معجم البلدان ، ج ٥:٣٩ .

(٢) ميافارقين : من أشهر مدن ديار بكر ، معجم البلدان ، ج ٥:٢٣٥ .

(٣) السلوك ، ج ١ : ٤١٤ .

(٤) ديار بكر : تُنسب إلى بكر بن وائل ، حدها ما غرب من دجلة إلى بلاد الجبل المطلّ على نصيبين إلى دجلة إلى حصن آمد ، معجم البلدان ، ج ٢:٤٩٤ .

(٥) آمد : بلد قديم من مدن ديار بكر ، معجم البلدان ، ج ١:٦٥ .

(٦) ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ : ٣٤٢ .

(٧) السلوك ، ج ١ ، ق٢:٤٢٢ .

(٨) قطز : هو الملك المظفر قطز المعزي ، انتصر على التتار في عين جالوت ، قتله الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨هـ ، انظر العبر ، ج ٥:٢٤٧ .

(٩) عين جالوت : بلدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين ، معجم البلدان ، ج ٣:٧١٩ ؛ انظر مراصد الاطلاع ، ص ٣٦٥ .

(١٠) سنجار : مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام ، معجم البلدان ، ج ٣:٢٦٢ .

(١١) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق د. سامي الدهان ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ، ١٩٥٣ ، ج ٣ ، ق١:١٥٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي سنة ٦٧٤هـ جرد الملك أبغا [١] جيشاً إلى مدينة البيرة [٢] واحتلها [٣] . وحاول التتار في سنة ٦٨٠هـ احتلال حمص ، إلا أن المسلمين تصدوا لهم وكان النصر حليفهم [٤] .

وكذلك هزم المسلمون التتار في مرج الصّفر في سنة ٧٠٢هـ [٥] .

وحاصر التتار مدينة الرحبة [٦] بقيادة الملك خدابندا [٧] ثم رحلوا عنها [٨] ، ثم ظهر تيمورلنك [٩] واحتل بلاد الشام سنة ٨٠٣هـ ، حيث سفك الدماء وخرّب البلاد وفعل الأعمال المنكرة والقبيحة [١٠] .

الحياة السياسية :

لقد ازدادت هجمات المغول على المنطقة في سنتي ٦٣٣ ، ٦٣٤هـ [١١] ، ولم تكن الخلافة قادرة على صدهم ، بل كانت عاجزة بسبب الضعف والمنازعات الداخلية بين

(١) ابغا بن هولاكو خان ، حكم بعد والده ثمانية عشر عاماً ، مات في حمص سنة ٦٨٠هـ ، انظر البداية ، ج١٣:٢٩٧ .

(٢) البيرة : بلد بين حلب والثغور الرومية وهي قلعة حصينة ، معجم البلدان ، ج ١:٥٢٦ .

(٣) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، تحقيق د. قسطنطين زريق ، منشورات الجامعة الأميركية ، بيروت ، م٧:٤١ .

(٤) انظر حول هذه الواقعة : السلوك ، ج ١ ، ق ٣:٦٩١ ، ذيل مرآة الزمان ، ٤:٦٩١ ، البداية والنهاية ، ١٣:٢٩٥ . تاريخ ابن الفرات ، م٧:٢١٢ .

(٥) انظر السلوك ، ج ١ ، ق٢:٩٣٠ ، البداية ، ج ١٤:٢٣ .

(٦) الرحبة : مدينة على شاطئ الفرات بين الرقة وبغداد ، معجم البلدان ، ج ٣:٢٣ .

(٧) هو محمد بن أرغون بن أبغا بن هولاكو ، ملك بعد أخيه غازان ، ت ٧١٦هـ ، الدرر الكامنة ، ج ٤:٤٦١ .

(٨) البداية ، ج ١٤:٦٦ .

(٩) ولد سنة ٧٢٨هـ ، آخر ملوك ذرية جنكز خان ، ت ٨٠٧هـ ، الشذرات ، ج ٧:٦٢ .

(١٠) السلوك ، ج ٣ ، ص ١٠٣٠ .

(١١) انظر طه الطراونة ، مملكة صفد في عهد المماليك ، ط ١ ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأمراء ، وكثرة القلاقل ، وكذلك كان الأمر بالنسبة للسلجوقيين ، فقد كانت عاجزة عن صدّ العدوان المغولي نتيجة صراعاتهم .

أمّا الدولة الأيوبية ، فقد استطاعت أن تقف في وجه المغول وغيرهم من الأعداء كالفرنجة ، وأكثروا من شراء المماليك الذين كان لهم الفضل الأكبر في الذبّ عن الإسلام من أخطار الأعداء .

وعانى الخلفاء الذين عاصروا الغزو المغولي من ضعف ووَهَن ، إذ لمّح ابن الأثير لضعف شخصيات دار الخلافة قائلاً : «فسأل الله أن يتيسر للإسلام والمسلمين نصر من عنده ، فإن الناصر والمعين والذاب عن الإسلام معدوم» [1] .

الحياة الاجتماعية والاقتصادية :

أما الحياة الاجتماعية والاقتصادية آنذاك ، فقد اجتاح المجتمع الإسلامي كوارث طبيعية جمّة كحدوث بعض الزلازل والفيضانات والقحط الذي صاحبه الجراد الذي يأكل الأخضر واليابس .

وهذه الكوارث الطبيعية كالقحط مثلاً أدّت إلى ارتفاع عظيم في الأسعار : «هجم ذيب الغلا واغتال ، ودخل في البلاد الحلبيّة واختال ، ورمى الناس بدائه ، ... ، وجلب الضرر والضير ، ... قفرت الأقوات ، وصعبت الأوقات ، ... وارتفعت الأسعار ...» [2] .

كما انتشرت الأمراض والأوبئة الخطيرة نتيجة القحط أو الكوارث الطبيعية «وأباد منهم ما لا يعد ولا يُحصى ، وذلك بعد تقدم الغلا الذي شوى منهم القلوب

(١) الكامل ، ج ١٢:٣٦١ ،

(٢) ابن حبيب الحلبي ، مخطوط درة الأسلاك في دولة الأتراك ، ميكروفيلم في مركز الوثائق بالجامعة الأردنية ، شريط رقم ٥٣٩ ، ص ١١٩ ، ١٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وما قلا ، لبث فيهم مدة طويلة وألقى عليهم وطأته الثقيلة ..» [١] .

ويقول ابن الأثير «كثر الموت والمرض في الناس .. فكان يُحمل على النعش الواحد عدة من الموتى ..» [٢] ولسوء الأحوال آنذاك وتزايد المرض ، «صارت الأموات تُدفن بغير غسيل ولا كفن ..» [٣] .

كما انتشر الظلم والتبذير والإسراف ولا سيما في العطايا والهدايا ، واشتدت الفتن في دور الخمر وأماكن الزنا [٤] .

الحياة الثقافية والعلمية :

لقد استمرت مختلف أنواع العلوم ابّان الغزو المغولي ، إذ نشطت حركة بناء المدارس في الأقطار الإسلامية كافة ، وقد خلّف المماليك الآثار والأبنية التي تشهد بتقدمهم في العمارة والري والبناء [٥] .

وتشير د. مناهل فخرالدين في مقال لها ، إلى أن هذا العصر (أي المملوكي) قد تميز «بتقدم حضاري ملحوظ» [٦] ، وكأنه امتداد للعصور العباسية الذهبية ، وقد عَزت د. مناهل عوامل هذا النشاط العلمي إلى ما يلي :

---

(١) درة الأسلاك ، ص ١٢٠ .

(٢) الكامل ، ج ١٢:٤٤٨ .

(٣) السلوك ، ج ١ ، ق ٣:٨١٤ .

(٤) البداية ، ج ١٣:٧٩ .

(٥) محمد كرد علي ، خطط الشام ، ط ٣ ، مكتبة النوري ، دمشق ، ١٩٨٣ ، ج ٤ ، ص ٣٧-٥١ ، وانظر ايضاً مقال الأستاذ ظاهر الدجاني ، مجلة الرسالة ، عدد ١٠٥ ، سنة ٣ ، ص ١٠٩٥ .

(٦) مجلة آداب الرافدين ، ع ١٠ ، سنة ١٩٨٩ تصدر عن جامعة الموصل «التعليم في ظل دولة المماليك» ، د. مناهل فخرالدين فليح ، ص ٣٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١ - انه عصر حضارة مستحكمة منذ آلاف من السنين ، استحكمت فيها الصنائع وتفننت .

٢ - حرص سلاطين المماليك على صدّ أعداء المسلمين من التتار والصليبيين ، وعلى صيانة التراث الإسلامي ، والإبقاء على العربية لغة للدين والسياسة والعلوم .

٣ - هجرة النابغين في كل علم وفن من بغداد بعد نكبتها ، ومن الأندلس والمغرب بسبب احتلال الفرنجة لبلادهم ، ومن مدائن العلم الأخرى ، إلى مصر والشام ليحظوا بالأمن وبرعاية المماليك ، وليلتفوا حول سلطتهم الروحية ورمز وحدتهم الخلافة الإسلامية التي أفلَ نجمها في بغداد .

وتضيف د. مناهل إلى الأسباب والدوافع السابقة ، رحلة الحج ، حيث يكون فيها كثير من العلماء الذين يمرون بمقتضاها ببلاد مصر والشام ، وقد يقيمون بها مدة يقدمون فيها جزءاً من خبراتهم وعلمهم [١] .

والذي يتأمل هذه الدوافع يجد أنها صحيحة ومنطقية ، فالحقيقة أن لمصر وبلاد الشام حضارة متميزة وقديمة ، وكذلك فقد حرص السلاطين فعلاً على مقاومة العدوان وصون اللغة والتراث ، كما ساعد بعض السلاطين والحكام على بناء المدارس ونشر العلم ، ومنهم من أحبّ الشعراء والعلماء وأولوهم عنايتهم الخاصة ، وهذا يدل على حرص السلاطين على العلم والمحافظة على التراث .

---

(١) مقال د. مناهل فخرالدين ، ص ٣٨٥ ، ٣٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد شملت الهجرة ، نتيجة الحروب ، الناس كافة ومنهم طبقة العلماء ، وكان الوطن البديل والجديد ، في مصر وبلاد الشام .

وقد برز العدد الكبير من علماء وأئمة الدين أمثال الرازي [١] والسخاوي [٢] وابن الصلاح [٣] ، كما اشتهر في علم التاريخ ابن الأثير [٤] وسبط ابن الجوزي .. وبرع في علوم اللغة العكبرى [٥] والكندي وابن يعيش [٦] ، واشتهر ابن عربي [٧] بعلم التصوف وكذلك ابن الفارض [٨] .

٤٧١٨٤٩

أما في الشعر فقد اشتهر العديد من الشعراء أمثال ابن الفارض ، وابن مطروح [٩] ، وابن النبيه [١٠] ، والشاغوري [١١] ، وابن عُنين ..

وفي النثر، برزالعديد من الكتاب ، أشهرهم: محيي الدين بن عبدالظاهر[١٢]،

---

(١) محمد بن عمر ، ولد سنة ٥٤٤هـ ، عمل في التفسير والفقه ، ت ٦٠٦هـ ؛ العبر ، ج ٢:١٨ .

(٢) علي بن محمد الهمذاني ، ت ٦٤٣هـ في دمشق ، العبر ، ج ٥:١٧٨ .

(٣) أبو عمرو بن عثمان تقي الدين بن الصلاح ، ولد ٥٧٧ هـ ، ت ٦٤٣هـ ؛ العبر ، ج ٥ ، ١٧٧ .

(٤) ابن الأثير ، ت ٦٣٠هـ ، العبر ، ج ٥:١٢٠ .

(٥) محب الدين عبدالله بن الحسين ، ت ٦١٦هـ ، العبر ، ج ٥:٦١ .

(٦) الموفق يعيش بن علي الأسدي ، ت ٦٤٣هـ ، العبر ، ج ٥:١٨١ .

(٧) ولد سنة ٥٦٠هـ ، له مصنفات في التصوف ، ت ٦٣٨هـ ، الشذرات ، ٥:١٨٩ .

(٨) ابن الفارض : عمر بن علي بن مرشد الحموي الأصل ، ولد سنة ٥٦٦هـ ، اشتغل بالفقه وهو من كبار شعراء الصوفية ، ت ٦٣٢هـ ، الشذرات ، ص ١٤٩ .

(٩) ابن مطروح : برع في الأدب ، ولد سنة ٥٩٢هـ ، خدم الملك الصالح ، ت ٦٤٩هـ ؛ العبر ، ج ٥ : ٢٠٤ .

(١٠) الصرصري ، الشيخ أبو زكريا يحيى بن يوسف ، كان إليه المنتهى في معرفة الفقه وحسن الشعر ، قتله التتر سنة ٦٥٦هـ ؛ العبر ، ج ٥ : ٢٣٧ .

(١١) ابن الحلاوي ، أبو الطيب أحمد بن محمد ، مدح الملوك ، ت ٦٥٦هـ ؛ العبر ، ج ٥:٢٢٧ .

(١٢) كاتب وناظم وناثر ، شيخ أهل الترسل ، كتب للملك الظاهر بيبرس ، وللمنصور قلاوون ، توفي بالقاهرة ، سنة ٦٩٢هـ ؛ فوات الوفيات ، ج ٢:١٧٩ ، العبر ، ج ٥:٣٧٦ ؛ الشذرات ، ج ٧:٧٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وشهاب الدين الحلبي [١] وابن فضل الله العمري [٢] .. وغيرهم .

وقامت في هذا العصر حركة تأليف الموسوعات الضخمة المتخصصة ، مثال ذلك الصفدي (ت ٧٦٤هـ) في كتابه «الوافي بالوفيات» ، والقلقشندي (ت ٨٢١هـ) في «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» ، والنويري (ت ٧٣٣هـ) في «نهاية الأرب في فنون الأدب» ، وكذلك السيوطي (٩١١هـ) والمقريزي (ت ٨٤٥هـ) والعسقلاني (ت٨٥٢هـ) .

ومن المؤسسات الثقافية التي عُرفت أنذاك : ديوان الإنشاء ، الذي تولى مهمات كثيرة ، كالرسائل والعهود والكتب كلها صادرة عنه .

وتسمية الديوان بهذا الاسم (أي ديوان الإنشاء) تقودنا إلى أمرين : أولهما : «أن المكاتبات السلطانية تُبتدأ منه وتخرج عنه» وثانيهما : «أن الكاتب يكتب لكل مناسبة كتاباً معيناً» [٣] .

وقد اشتهر هذا الديوان بديوان الرسائل نظراً لأهمية الرسائل كنوع من المكاتبات الصادرة عنه [٤] . وتميز صاحب ديوان الإنشاء بالرفعة والشرف العظيم عند الملوك ، «ولم يزل صاحب هذا الديوان معظماً عند الملوك في كل زمن ، مقدّماً لديهم على من عداه ، يلقون إليه أسرارهم ويخصونه بخفايا أمورهم ويطلعونه على ما لم يطلع عليه أخص الأخصاء ...» [٥] .

---

(١) محمود بن سلمان بن فهد الحلبي ثم الدمشقي ، اديب ، لغوي ، كاتب ، ولد بحلب سنة ٦٤٤هـ ، له تصانيف كثيرة ، ت ٧٢٥هـ ؛ فوات الوفيات ، ج ٢٨٦:٢ .

(٢) ابن فضل الله العمري شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى ، ولد بدمشق ٧٠٠هـ ، ت ٧٤٩هـ ، من مصنفاته : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ؛ الشذرات ، ٦٠:٦ ؛ فوات الوفيات ، ج ٧:١ .

(٣) القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي المصرية ، ج ٩٠:١ .

(٤) صبح الأعشى ، ج ٩٠:١ .

(٥) صبح الأعشى ، ج ١٠١:١ ؛ علي بن خلف ، مواد البيان ، تحقيق حسين عبداللطيف ، جامعة الفاتح ، طرابلس ، ١٩٨٢ ، ص ٣٠ ، ٣١ ، ٣٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصـل الأول

* مواكبة النثر الفني العربي لأحداث الغزو المغولي
* المراسلات بين سلاطين المسلمين وملوك المغول

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

مواكبة النثر الفني العربي احداث الغزو المغولي

إن المطلع على الآثار الأدبية في هذه الحقبة الزمنية وفيما بعدها، يلاحظ تتبعها أخبار التتار بالتفصيل .

فقد وصفت المصادر تحركات التتار وصفاً كاملاً كما اشتركت في ذلك كتب التراجم والسير ، وكذلك كتب الأدباء أنفسهم ولا سيما الذين لازموا السلاطين والحكام .

إنّ غزو التتار لبلاد الإسلام "مصيبة ما دُهي الإسلام قط مثلها [١] " كما يقول ياقوت ولشدة خطر التتار ووحشية أعمالهم ، أعرض ابن الأثير لفترة من الزمن عن رصد أحداثها بقوله " لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن هذه الحادثة استعظاماً كارهاً لذكرها فأنا أقدم إليه رجلاً وأوخر ... " [٢].

ولقد ذكر الأدباء المسلمون هذه الحادثة الأليمة ، يقول ابن خلكان : " فإنا لله وإنا إليه راجعون من حادثة تقصم الظهر ، وتهدم العمر ، وتفت في العضد ، وتوهي الجلد ، وتضاعف الكمد ، وتشيب الوليد ، وتنحب لب الجليد ، وتسود القلب ، وتذهل اللب ..." [٣] .

---

(١) معجم البلدان ، ج ٥ : ٣٣٢ ؛ الحموي ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ج ٥:٣٣٢ .

(٢) الكامل م ٩ : ٢٣٠ . وانظر الكتبي ، عيون التواريخ ، تحقيق د. فيصل السامر ونبيلة داود ، وزارة الثقافة والإعلام ، ج ٢٠/١٢٩ . وانظر أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ط ١ ، المطبعة الحسينية ، ج ٣:١٢٢ .

(٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، تحقيق د . احسان عباس : دار صادر بيروت ١٩٧٧ ، ج ٥ ، ١٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول خطيب بغداد وهو ينعى بغداد في آخر خطبة له فيها : " الحمد لله الذي هدم بالموت مشيد الأعمار ، وحكم بالفناء على أهل هذه الدار ، والسيف قائم بها ، اللهم أجرنا في مصيبتنا التي لم يُصب الإسلام وأهله بمثلها وإنا لله وإنا إليه راجعون " [١] .

لقد كانت هجمات المغول قاسية وعنيفة ، مما جعلت الأمة تنسى كل المصائب قبلها ، لأنها كانت الأعظم والأخطر بالنسبة اليهم ، فالسيوطي يسجل رأي الموفق عبداللطيف في التتار : "هو حديث يأكل الأحاديث ، وخبر يطوي الأخبار ، وتاريخ ينسي التواريخ ونازلة تصغّر كل نازلة ، وفادحة تطبق الأرض وتملؤها ما بين الطول والعرض " [٢] .

ويشير فخر الدين ابراهيم بن لقمان [٣] في نسخة عهد كتبها للظاهر بيبرس ، إلى هذا العدوّ الذي أطاح بالخلافة " .. وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان ، وأذهبت ما كان لها من محاسن وإحسان .. " [٤] .

وكذلك الأمر عند القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر في نسخة عهد للسلطان المنصور قلاوون حيث يومئ بإشارة غير مباشرة لما حل بالخلافة العباسية نتيجة الغزو المغولي : " ثم الحمد لله الذي جعل الخلافة العباسية بعد القطوب حسنة الابتسام ، وبعد الشحوب جميلة الاتسام ، وبعد التشريد كل دار

---

(١) النجوم الزاهرة ٧ : ٤٨ ، مخطوط تاريخ الإسلام : ٢٤٩ ، حُلى الأيام ، ج ٤ : ٩٢١ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٤٦٧ ، لقد حاولت البحث عن مؤلف الموفق عبد اللطيف ، فلم أعثر عليه مما اضطررت نقله عن السيوطي .

(٣) ابراهيم بن لقمان بن أحمد بن محمد الشيباني أبو العباس فخر الدين ولد ٦١٢هـ ، كاتب وشاعر مات ٦٩٣ هـ انظر المنهل الصافي ، ج ٣٦/١ .

(٤) صبح الأعشى ، ج ١٠ : ١١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إسلام لها أعظم من دار السلام ....." [١] .

ولم تكتف المصادر الأدبية والتاريخية التي عاصرت الغزو فقط بالاشارة إلى الغزو ، بل حتى بعض المتأخرين ، أكدوا كونها فادحة عظيمة ، ومرضاً جسيماً للإسلام " وكانت بليّة عظيمة ، لم يصب الإسلام بمثلها " [٢] .

ذكر ابن الأثير سبب اجتياح المغول للعالم الإسلامي ، وهي حادثة أوترار [٣]، حيث بعث جنكزخان[٤] نوابه إلى المدينة المذكورة ، ليشتروا له الكسوة ، فأمر خوارزمشاه [٥] بقتلهم ، فعلم بذلك جنكزخان ، فدارت رحى الحرب بين عساكر جنكزخان وخوارزمشاه ، ومن هنا كانت انطلاقة المغول لغزو البلاد الإسلامية [٦] .

وبعد غضب جنكزخان الشديد ، بدأ بحملاته العنيفة ضد المدن الإسلامية "فساق جنكزخان بعد استيلائه على اترار إلى بخارا [٧] وهي أقرب المدن إلى مراكز الرايات السلطانية ، يحاصرها ، ... فحط على بخارا محاصراً وبمن ساقهم من رجّالة أترار وخيالتها متكاثراً ، وداوم القتال عليها ليلاً ونهاراً حتى استولى عليها عنوة واقتداراً .. " [٨] .

---

(١) صبح الأعشى ، ج ١٠ : ١٢١ .

(٢) القرماني ، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، بيروت ، عالم الكتب ، ج ٢ : ١٩٨ .
(انظر حول ما حلّ في بغداد بعد الغزو : الروض المعطار للحميري : ١١٢)

(٣) مدينة من بلاد الترك ، آخر ولاية خوارزم شاه ، ابن الأثير ، ج ١٢ : ٢٦١ .

(٤) فاتح مغلي ، ولد عام ٥٥٥هـ ، توطد سلطان المغل فيما وراء النهر وخوارزم في حياة جنكزخان ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج ٧ /١٢٦ .

(٥) علاء الدين محمد ، ت ٦١٧هـ ، على يد المغول ، ابن الأثير ، ج ١٢ : ٢٧١ .

(٦) الكامل ، ١٠٢ : ٤٠١ ، نسخة دار الكتب العلمية .

(٧) بخارا : من أعظم مدن ما وراء بينها وبين جيحون يومان ، معجم البلدان ، ١:٣٥٣ .

(٨) النسوي ، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، دار الفكر العربي ، مصر ، ١٩٥٣ ، ص ١٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد حمل جلال الدين منكبرتي [١] على المغول حملة عظيمة لأنهم سبب قطعه عن أهله وذويه فلاقاهم سنة ٦١٨هـ بنفس قوية شريفة تأبى الذل : " فلما ترأى * الجمعان حمل بنفسه على قلب تولي خان [٢] ، فبدد نظامه ونثر تحت قوائم الخيل أعلامه وألجأه إلى الانهزام وإسلام المقام ، وتحكمت فيهم سيوف الانتقام . وركب جلال الدين أكتاف المغل يخطف بالقواطع علاوات الأخادع ، ويفصل بالأسياف مجامع الأكتاف وكيف لا وقد فجعوه باخوته وأبيه ومملكته وذويه ، وفصيلته التي تؤويه ، فترك لا والد ولا مولود ، ولا عابد ولا معبود ، تلفظه النوادي إلى البوادي وتقذفه المخاوف إلى التنائف " [٣] .

وقد تلاقت جيوش جلال الدين مرة أخرى بجيوش المغل في جرجان [٤] سنة ٦١٩هـ حيث حمي وطيس المعركة وقاتل الطرفان بشدة ، فلم يرحم أحدهما الآخر ، فاختلط الضرب والطعن والسفك " . وتصاف الفريقان ، وعند ذلك حمي الوطيس ، واختلط المرؤس والرئيس ، فكنت ترى السيوف للهامات دامغة ، والرماح في الأكباد والغة ، وثارت عجاجة غبراء سترت العيون عن الأشباح ، فلم تعرف الرماح من الصفاح ، .. واكتست الأرض لون الشقائق من دماء الطلى والعوانق ... " [٥] .

---

(١) ابن السلطان علاء الدين محمد ، حارب التتار ، قتل سنة ٦٢٩هـ ، العبر ، ١١٤/٥ .

* هكذا وردت في النص .

(٢) تولي خان : ابن جنكزخان قتل سنة ٦١٨هـ ، انظر سيرة جلال الدين ، ١٥٤ .

(٣) سيرة جلال الدين منكبرتي ، ص ١٥٤ .

(٤) جرجان : مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان ، معجم البلدان ، ١١٩/٢ .

(٥) سيرة جلال الدين منكبرتي ، ١٣٨ -١٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن معضلات الحروب التي دارت بين جيوش جلال الدين وعساكر المغل ، معركة كان النصر في أولها حليف جيوش جلال الدين ، إلا أن غدر جنكزخان ، وخداعه صيّر نصر جلال الدين هزيمة نكراء : " فلما تلاقى الفريقان ، والتقت حلقتا البطان ، وقف جلال الدين حذاه في ظل من العدد ، وقد فارقه العدد الدثر

بنفس تعاف العار حتى كأنه هو الكفر عند الروع أو دونه الكفر

ثم حمل بنفسه على قلب جنكزخان فمزقه بدداً ، وجعله طرائق قددا ، وولّى اللعين بنفسه هزيماً ، .. وكادت الدائرة تدور على الكفار ، والهزيمة تستمر بأهل النار ، لولا أن اللعين أفرد قبل اللقاء الكمين ، وفيه عشرة آلاف فارس من تحت رجاله الملقبين بالبهادرية [١] . فخرجوا على ميمنة جلال الدين ، ... فكسروها وطرحوها على القلب فتبدد نظامه ، وتزعزعت عن الثبات أقدامه . " [٢] .

وقد عُرف التتر بولعهم الشديد لسفك الدماء ، وموت البشر والاستيلاء على المدن والثغور . " إن هؤلاء التتر لا تفيد معهم مداراة ولا تنجح فيهم خدمة ، وليس لهم غرض إلاّ ذهاب الأنفس والاستيلاء على البلاد " [٣] كما يقول صاحب "الاعلاق الخطيرة" .

وقد وصف ياقوت الحموي جزءاً من أحداث الغزو المغولي سنة ٦١٧هـ ، حيث ذكر أعمالهم القاسية والفظيعة ؛ فهم يخربون البلاد ويهدمون البيوت والمساكن ، ويصيرونها مساكن للغربان بعد أن كانت بيت الأمان ، جميلة المنظر : " .. إلى أن

---

(١) البهادرية : نسبة الى بهادر ، وهي كلمة تركية معناها شجاع ، انظر سيرة جلال الدين : ١٥٨ .

(٢) سيرة جلال الدين منكبرتي ، ص ١٥٨ .

(٣) ص ٤٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حدث بخراسان [١] ما حدث من الخراب والويل المبير ، والتباب ، وكانت لعمر الله بلاداً موفقة الأرجاء رائقة الانحاء ، ذات رياض اريضة وأهوية صحيحة .. فجاس خلال تلك الديار أهل الكفر والالحاد ، وتحكم في تلك الأستار أولو الزيغ والعناد ، فأصبحت تلك القصور كالمحو من السطور ، وأمست تلك الأوطان مأوى للأصداء والغربان ، يتجاوب في نواحيها البوم ، ويتناوح في أراضيها الريح السموم ، يستوحش فيها الأنيس ، ويرثى لمصابها ابليس .. " [٢] .

لقد اجتاحت حملات جنكزخان معظم المدن الإسلامية ، فخربت البيوت والمساكن ، وحطمت الأبرجة والقلاع ، تذهب وتسرق وتسفك الدماء [٣] .

واستمر المغول في القتل والتعذيب والاستيلاء على البلاد ، حتى سقطت أم الدنيا دار السلام بأيديهم وذلك في سنة ٦٥٦هـ " استولى التاتار خذلهم الله على بغداد ، فقتلوا ونهبوا وفعلوا ما جرت عادتهم عند استيلائهم على بلاد العجم " [٤] .

أحاط عسكر التتار ببغداد حتى احتلوها عنوة حيث " أغلقت أبواب مدينة بغداد وأحاط بها التتار ، وضايقوها بالحصار ، فاقتحموها عنوة ودخلوها غدوة في العشرين من المحرم من هذه السنة [أي سنة ٦٥٦هـ] ، فبذلوا في أهلها المناصل ،

---

(١) خراسان : بلاد واسعة ، أول حدودها مما يلي العراق وتشمل على نيسابور وهراة ومرو وبلخ ، معجم البلدان ٢: ٣٥٠ .

(٢) ابن خلكان : ٥: ١٨٥-١٨٦ .

(٣) انظر ما فعله جنكزخان لمدينة سمرقند والجزيرة وديار بكر في تاريخ مختصر الدول ٢٣٤، مرآة الزمان، ٢: ٧٧٨ .

(٤) الذيل على الروضتين : ١٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأوردوهم من حياض الموت أمر المناهل ، وأكثروا .. * واليتامى والأرامل ، ولم يرحموا شيخاً كبيراً ولا طفلاً صغيراً .. " (١) .

وقد تفنن التتار في ممارسة جميع فنون التعذيب والتنكيل والاضطهاد بالمسلمين : " فلو شاهدتم أعداء الإسلام حين دخلوا دار السلام ، واستباحوا الدماء والأموال ، وقتلوا الرجال والأطفال ، وهتكوا حرم الخلافة والحريم وأذاقوا من استبقوا العذاب الأليم ، فارتفعت الأصوات بالبكاء وعلت الصيحات من هول ذلك اليوم الطويل ، فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه ، وكم من طفل بكى فلم يُرحم لبكائه ... " (٢) .

ومهما كتب المؤرخون والأدباء عن هذه المصيبة ، فأنهم لم يوفوها حقها لشدة هولها ومأساتها حيث يذكر أبو شامة كتاباً قد ورد اليهم ممن سلم ببغداد يقول فيه : " والأمر أعظم مما بلغكم من الأخبار ، اللهم عافنا وبلادنا من كل سوء " (٣) .

كانت حرب المغول على البلاد الإسلامية حرباً قاسية لم يعرف التاريخ مثلها ، إلى أن تجلت مشيئة الله عز وجل ، ونزلت اوسع رحماته على المسلمين ببعث الأبطال الأسود ، الذين حققوا أعز وأنبل الانتصارات ، فالسلطان قطز يخرج لجهاد التتار قائلاً : " يا أمراء المسلمين ! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال ، وأنتم للغزاة كارهون ، وأنا متوجه ، فمن اختار الجهاد يصحبني ، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته ..... " (٤) .

---

* لفظة غير واضحة من المصدر .

(١) زبدة الفكرة ٦٨ ، انظر ايضاً السلوك ، ج١ ، ق ٢، ٤١ ، المواعظ ، ٢٤٢:٢ ، البداية ٢٠٣:١٣ .

(٢) ذيل مرآة الزمان ، ١٨٨:٢ انظر ايضاً مخطوط درة الأسلاك ، ٢٤٣ .

(٣) الذيل على الروضتين : ١٢١ .

(٤) السلوك ، ج ١ ، ق ٢ : ٤٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وخرج قطز وعساكره مجتمعين على إعلاء كلمة الله ، مصممين على دحر العدو وطرده ، خرجوا بقوة وعزيمة واثقين من النصر بإذن الله ، والتقى الفريقان بعين جالوت و"تراءت العين بالعين ، واضطرم نار الحرب بين الفريقين ، فلم ترَ إلاّ ضرباً يجعل البرق نضواً ، ويترك في بطن كل من المشركين شلواً حتى صارت المغاوز دلاصاً ، ومراتع الظُبا للظُبا عراصا ، واقتنصت أساد المشركين اقتناصاً .... " [١] .

وكان النصر حليف المسلمين بتأييد من الله عز وجل : وكشف الله هذه الكربة بعزم الترك ، وأرغم ببأسهم أنوف الشرك فهي أول الوقائع التي هموا بتلافيها والملاحم التي أبلوا فيها .... " [٢] .

لقد كان انتصار المسلمين في هذه الوقعة -: « التي شفت غيظ الايمان من الكفر ، ومكنت منهم الفتك » [٣] من أهم أسباب اليقظة لديهم ، ولا سيما بعد سقوط بغداد وخرابها ، فتجدهم يكسرون التتار مرة أخرى سنة ٦٥٩هـ في وقعة حمص ، حيث خرج المسلمون للقاء التتار الذين بلغ عددهم ستة الآف فارس، بينما كان عدد المسلمين ألفاً وأربعمائة فارس ، واستعان المسلمون بقوة الله : " وحملوا عليهم حملة رجل واحد حقق الله بها سؤالهم ، وحسن عاقبتهم ومآلهم .. " [٤] .

وقد كتب الشيخ جمال الدين عمر بن ابراهيم بن الحسين الرسعني مقامة ذكر خلالها وصفاً لما جرى بحلب : " هذا وقد نزلت فنون البلاء بالشام ، وهملت

(١) صبح الأعشى ، ٧ : ٢٨٨ .

(٢) بيبرس المنصوري ، التحفة الملوكية في الدولة التركية ، نشر د. عبد الحميد صالح حمدان ، الإدارة المصرية اللبنانية ، ط١ ، ١٩٨٧ ، ص ٤٤ .

(٣) ابن شداد : تاريخ الملك الظاهر ، تحقيق احمد حطيط ، دار النشر فرانز شتايز بفيسادث ، ١٩٨٣ ، ص ٣١٩ .

(٤) ذيل مرآة الزمان ، ٤٣٥/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عيون العناء كالغمام ، وصار وشام الإسلام كالوشام ، وعرام الأنام في غرام ، وخفيت آثار المآثر ودرست ، وطُفِئت أنوار المنابر وطمست وحلبت العيون مآثرها على حلب ... " [١] ثم يذكر جمال الدين نصر المسلمين وكسرهم للتتار : "ولما تعظم العدو وتكبر ، وتقدم بالعتوّ وتجبر ، وبسط سيفه على الخافقين وهبط خوفه على المشرقين ، أطلع الله طلائع اللواء المظفر ، وأبدع مطالع السناء الأنوار، وخفقت الرايات والبنود ... " [٢] .

قصد التتار البيرة سنة ٦٧١هـ ، فاستعد المسلمون للقائهم ، وقاتلهم الظاهر بيبرس قتالاً عنيفاً حتى : أرعبت صولته التتار رعباً يكاد يفرق بين النوم والأحداق .. " [٣] ولا قاهم البطل لقاء الأسد المفترس المشتاق للفريسة : واندفع اندفاع السيل المحتبس ، وأخذته الحميّة للإسلام ، ومنع جنبه أن يضطجع وعينه أن تنام ....." [٤]

وفي سنة ٦٧٢ هـ * فتح الملك الظاهر بيبرس قيسارية [٥] من بلاد الروم واقتلعها من أيدي التتار ، فكانت غزوة جليلة عظيمة حطمت التتار وأبادتهم "وتالله ما ورُخ ** مثلها في التواريخ الأول" [٦] .

---

(١) ابن الوردي ، تتمة المختصر في اخبار البشر ، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، دار المعرفة ، ١٩٧٠، ٢:٣٠٨ .

(٢) تتمة المختصر ، ٢: ٣٠٨ .

(٣) التحفة الملوكية ، ٧٥ - ٧٦ .

(٤) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق : عبد العزيز الخويطر ، الرياض ، ١٩٧٦ ، ص ٢٢١ .

* ورد في بعض المصادر التاريخية أن الواقعة في سنة ٦٧٥هـ ، انظر مخطوط درة الأسلاك ، ص ٨٢ .

(٥) قيسارية : بلد على ساحل الشام وهي ايضاً مدينة كبيرة في بلاد الروم ، معجم البلدان ، ٧/٤٢١ .

** هكذا وردت في المصدر .

(٦) صبح الأعشى ، ١٤/١٥٨ ، التذكرة الصفدية ص ٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتستمر انتصارات المسلمين على التتار الذين ما انفكوا عن الهجوم القاسي للدول الإسلامية ، حيث التقى الفريقان في حمص سنة ٦٨٠هـ ، وكانت معركة حامية الوطيس ، تجلى النصر فيها للمسلمين وكثرت كتب البشائر والتهاني في هذه الواقعة ، وقد جاء في كتاب تهنئة : " نعلمه أننا ضربنا مصافاً مع العدو المخذول على ظاهر حمص في يوم الخميس رابع عشر رجب الفرد سنة ثمانين وست مائة ، وكان العدو المخذول على ظاهر حمص في مائة ألف فارس أو يزيدون ، والتحم القتال من ضحوة النهار إلى غروب الشمس ، ففتح الله ونصر وساعدنا بمساعفة القدر ، ونصرنا والحمد لله أن أذل الأعداء وكسرهم وظفر المسلمون" (١) .

ويلتقي الفريقان من جديد في سنة ٦٩٩هـ في وادي الخزندار (٢) ، وكان النصر في بداية الأمر للمسلمين إلا أنه تحول إلى هزيمة لإنه " لم يكن عند المسلمين في تلك النوبة اكتراث بالتتار ، ولا كأنهم عندهم عدوّ .. " (٣) .

ويبدو لي أن استهانة المسلمين بالعدو كان سبباً هاماً في تحويل النصر إلى هزيمة ، وانتصرت الطغاة الباغون " فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وذلك بعد الهصر، وحصل للمسلمين حصر ، وأيمّا حصر ... " (٤) .

لقد كانت الهزيمة قاسية على المسلمين ولكن لا بدّ من تدارك الأمور ومحاولة الاصلاح والظفر : " فإن هذه الفتنة التي جرت ، وإن كانت مؤلمة

(١) ذيل مرآة الزمان ، ٤ : ٩٥ ، تذكرة النبيه ١:٦٣ .

(٢) هو مجمع المروج ويعرف بوادي الخزندار وهو بين حماه وحمص ، انظر السلوك ، ج ١ ، ق٣ : هامش ص ٨٨٦ .

(٣) ابن أيبك الدواداري ، كنز الدرر وجامع الغرر ، تحقيق هانس روبرت رويمر ، اصدار قسم الدراسات الاسلامية بالمعهد الالماني للآثار بالقاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ١٥ .

(٤) كنز الدرر ، ص ١٧ ، السلوك ، ج ١ ، ق٣ : ٨٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للقلوب، فما هي إن شاء الله إلا كالدواء ، الذي يُسقاه المريض ليحصل له الشفاء ، والقوة " [١].

وفعلاً تدارك المسلمون الهزيمة التي ألمت بهم ليسجلوا انتصاراً عظيماً في سنة ٧٠٢هـ في واقعة مرج الصُّفر [٢] فكانت غزوة عظيمة زرعت الثقة في النفوس من جديد وغيرت الأحوال : " هذه الغزاة المبرورة ، والحركات التي عدت حسناتها في صحائف القبول مسطورة ، والسفرة التي أسفرت بحمد الله عن الغنيمة والسلامة .... . [٣]

لقد كانت غزوة مرج الصُّفر تجديداً لعهد الأبطال بتحقيق الانتصارات على العدو ، فبشراها انتشرت في الآفاق : " وارتفع لها في الأكوان رواق ، وأي رواق ... ، وملأت الوجود سروراً وأفراحاً ، وطلعت في نهار النصر شمساً ، وفي ليل الدجى مصباحاً ... " [٤] .

نلاحظ مما سبق عذاب المسلمين وألمهم من أعمال جنكز خان وهولاكو وأبغا * ... وغيرهم من قادة التتار الكفار ، واستعدادهم دوماً للقائهم ، ولكن مع قدوم الطاغية تيمورلنك ، يزداد العذاب والألم والقسوة ، ويزداد الاستعداد للمجابهة أكثر فأكثر ، حيث قدم تيمور ، يحمل في داخله أشكالاً من القسوة والتخريب .

---

(١) ابن تيمية ، رسالة الى السلطان الملك الناصر في شأن التتار ، نشرها د . صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ط ١ ١٩٧٦ ، ص١٢ .

(٢) مرج الصُّفر : بالضم وتشديد الفاء : موضع بدمشق ، معجم البلدان ، ج ٥ /١٠١ .

(٣) السلوك ، ج ١ ، ق ٢ : ١٠٢٨ .

(٤) ابن حبيب ، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، تحقيق د . محمد محمد أمين وآخر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢ ، ج ١ :٢٤٩ .

* وردت ترجمة لجنكزخان وأبغا ، أما هولاكو : حفيد جنكزخان ، كانت مدة ملكه عشر سنين ، ت سنة ٦٦٤هـ ، انظر أبو الفداء ، ج ٤:٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ففي سنة ٧٩٥هـ استولى تيمورلنك على بغداد " وفعل بها فعالاً قبيحة من القتل والأسر والنهب " [١] .

وقد أشار ابن عربشاه إلى توجه تيمورلنك نحو بغداد بقوله « ثم انحدر إلى بغداد بعساكر كالذر والفراش كالجراد » [٢] .

لقد خرَّب تيمور مدينة بغداد ، هذه المدينة البهية التي طالما تعرضت للغزو المغولي ، حيث قتل أهلها وحرق مبانيها وحلّ الخوف والحزن على من بقي من أهلها على قيد الحياة « فثنى نحوها عنان الحنق وأضمر ما تصل إليه يده من غرق وحرق ، وأظل عليهم بغمام غم بعدما رعد وبرق ، فوصل بتلك الفِرق وأحلّ بهم البؤس والقلق ، وأذاقهم لباس الجوع والفَرق ... » [٣] .

قتل تيمور العدد الكثير من أهل بغداد، وفتكت عساكره بهم فتكاً عظيماً حيث أنزلت بهم اللاء والتنكيس والنكال ، وشيدت من رؤوس القتلى أهراماً : « ... ثم أتوابهم فرادى وجملة ، وجاروا بسيل دمائهم نهر الدجلة ، وطرحوا أبدانهم في تلك الميادين وجمعوا رؤوسهم ، فبنى بها ميادين فقتلوا من أهل بغداد نحواً من تسعين ألف نفس صبرا ، وبعضهم عجز عن تحصيل البغداديين ، فقطع رؤوس من معه من أهل الشام وغيرها أسرى وعجز بعض عن رؤوس الرجال فقطع رؤوس ربات الحجال ... » [٤] .

ويتكئ ابن عربشاه على فنّي الطباق والمقابلة ، ليشير إلى أحوال بغداد قبل الغزو المغولي وبعده ، بغداد مدينة السلام التي آلت وأصبحت مدينة الشؤم ،

(١) ابن قاضي شهبة ، تاريخ ابن قاضي شهبه ، تحقيق عدنان درويش ، دمشق ١٩٧٧ ، ج ٣ : ٤٧٥ .

(٢) ابن عربشاه ، عجائب المقدور في أخبار تيمور ، المطبعة العثمانية ، مصر ، ص ١١٧ .

(٣) المصدر نفسه : ص ١١٩ .

(٤) المصدر نفسه : ص ١١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وموطن الغراب ، وأصبح سكانها في ذل وهوان بعد أن كانوا في عز ونعيم ، إذ يقول : « ... ثم إنّ تيمور خرّب المدينة بعد أن أخذ مابها من أموال خزينة وافقر أهلها ، وأقفر منازلها ، وجعل عاليها سافلها ، وصارت بعد أن كانت مدينة السلام دار السام ، وأسروا من بقي من ضعفة أهاليها ... ومزقتهم أيدي الزمان كل ممزق ... بعد أن كانوا في ظلال ودلال ، ومن مساكنهم في جنتين عن يمين وشمال ، فاليوم عشعش البوم والغراب في أماكنهم ... ، وهذه المدينة هي أشهر من أن توصف ... وعرفانها أذكى من أن يُعرف ... وناهيك أنها كاسمها مدينة السلام وأنه على ما قيل لم يمت بها إمام .. »[1] .

قصد تيمورلنك بلاد الشام سنة٨٠٣هـ ، حيث اقتحمت عساكره مدينة حلب وأشعلوا النيران بها ، وطافوا ينهبون ويأسرون ويسفكون الدماء « بحيث صارت بقعة حلب الشهباء مظلمة كالليل الدهماء »[2] .

لقد فزع أهل حلب من عساكر تيمور ، هذه العساكر التي قتلت النفوس البريئة من رجال ونساء وصغار : « فبينما هم في هذه الداهية الدهماء ، وإذا هم بالتمرلنكية لحقوهم بالسيوف السود ، وركبوا أقفيتهم إلى أن دخلوا مدينتهم ، فتفرقوا في أزقتها وهم ينهبون ، وشرعوا يقتلون ويأسرون ويخربون ويحرقون، فاذاقوا أهل الشهباء من أنواع العذاب من القتل والعصر والكي والعقاب ، وله درّ من قال :

على حَلَب الشهباء حلّت مصائب بأيدي تمرلنك ومُغل وجِقْطاي[3]

---

(١) عجائب المقدور : ١٢٠ .

(٢) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ، تحقيق د. حسن حبشي ، وزارة الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ج ٢:٧٥ .

(٣) نزهة النفوس ، ج ٢:٧٥ ، ٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويؤكد ابن الصيرفي وحشية عساكر تيمور ، الذين جالوا في حلب وأرجائها، واشتملوا على أطرافها وأنحائها ، إذ يقول : « ولم يزالوا في أزقتها جاثمين وفي دماء المسلمين عائمين ، فقتلوا خلقاً لا يُحصى عددهم من الصغار والكبار ، غير من مات من الأطفال تحت سنابك الخيول من الدّوس والعثار .. » [١] .

وكذلك الحال بالنسبة لمدينة دمشق ، فهذه المدينة البهية الرائعة المال «وردت عليها الطغاة من التمرلنكية فأزالوا بهجتها بالهدّ والنيران ، وغيروا رسومها وأثارها من العمران .. » [٢] .

حاصر تيمور قلعة دمشق وأعدّ لها الأسلحة ، وأنزل بها الخراب والدمار ، إذ يقول ابن عربشاه : « ... ثم أنه صار في هذه المدة يحاصر القلعة ويعدّ لها من استطاع من عدة ، ... ، وناوشوها الطعن والضرب ... ، ونصب عليها المجانيق ونقب تحتها وعلق بالتعاليق ... ، وأمطر عليها سهام غمام رماته ، وصواعق بوارق كماته ... ، أتاها العذاب من فوقها ومن تحتها وعن أيمانها وعن شمائلها ... » [٣] .

وكما هو معروف عن سمات الوحشية والقسوة والتجبر المتأصلة في المغول المتعطش للدماء ، فقد عبثت عساكر تيمور في دمشق ، إذ عذبت النفوس عذاباً أليماً ، وأشعلت النيران في أجسادهم ، وهتكت أستار الشريفات « فهجمت أولئك الكفرة الفجرة أشدّ الهجوم ، وانقضوا على الناس بالتعذيب والتثريب والتخريب انقضاض النجوم ، ... ، وصالوا على المسلمين وأهل الذمم صولة الذئاب الضواري على ضواني الغنم ، ... ، وأسروا المخدّرات وكشفوا غطاء المستترات ... ،

---

(١) نزهة النفوس ، ج ٢:٧٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٢:٩٠ .

(٣) عجائب المقدور : ١٠٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واستخلصوا بأصلاء النار جواهر النار ، منهم خلاصات الذهب ، وصنفوا في استخراج النفائس من النفوس بأصناف العذاب مسائل يُفضي منها العجب ...» [١].

ويتأثر ابن عربشاه بالقرآن الكريم في وصف أهوال هجوم المغول على دمشق قائلا : « ... وفرقوا بين الوالدة وولدها ، والروح وجسدها ، وذهلت كل مرضعة عمّا أرضعت ... وفرّ المرءُ من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، وصار لكل منهم يومئذ بشأن يعنيه ، ... فأقسم بالله لقد كانت تلك الأيام علامة من علامات يوم القيامة وأسفرت تلك الساعة عن أشراط الساعة » [٢] .

وقد تأثر كاتب السيرة -في النص السابق- بالصنعة والزخرف تأثراً بارزاً .

المراسلات بين المسلمين والمغول

لقد تبيّن مما سبق أن النثر الفني العربي ، قد واكب معظم الوقائع بين المسلمين والتتار ، مسجلاً الانتصارات والهزائم ، وأعمال الدمار والعنف .

وسأبين الآن أن النثر الفني العربي قد واكب أيضاً أهم المراسلات بين المسلمين والتتار ، وبين المسلمين وحلفاء التتار وبين المسلمين أنفسهم .

وقد جاءت المراسلات بين الطرفين على صور عديدة ، فهناك كُتب الوعيد والإنذار من التتار إلى المسلمين ، وقد واكبها النثر ورصدها ، كما واكب خطابات الردّ عليها من قبل المسلمين ، وكذلك هدن التحالف مع أعوان المغول كالأرمن والفرنجة وغيرهم ...، وكذلك نصوص الأمان من قبل سلاطين المغل إلى المسلمين، أضف إلى ذلك كتب الصلح بين الطرفين، ونصوص الردعليها من قبل المرسلةإليه.

---

(١) عجائب المقدور : ١١١ .

(٢) المصدر نفسه : ١١١ ، ١١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يضاف إلى هذا بعض رسائل أهل الإصلاح والدين للسلاطين يدعونهم للذبّ عن الإسلام ومقاومة العدو المغولي .

ومن مراسلات التهديد والإرعاد الواردة من قبل التتار ، رسالة هولاكو إلى المظفر قطز ، يقول هولاكو : « ... إنا نحن جند الله في أرضه ، خَلَقَنا من سخطه ، وسلطنا على من حلّ به غضبه ، فلكم بجميع البلاد معتبَر ، وعن عزمنا مزدَجَر ، فاتعظوا بغيركم ، وسلّموا إلينا أمركم قبل أن يكشف الغطا ، فتندموا ويعود عليكم الخطأ ، فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكا . وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد ، وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب ... فأبشروا بالمذلة والهوان ، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون * . وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ** ... فلكم ما لنا ، وعليكم ما علينا ، وإن خالفتم هلكتم ، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم ، فقد حذر من أنذر . وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة . وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة ... فقد أنصفناكم إذ راسلناكم وأيقظناكم إذ حذّرناكم . فما بقي لنا مقصد سواكم ، والسلام علينا وعليكم ... » .

ألا قلْ لمصر ها هلاون *** قد أتى بحدِ سيوفٍ تُنتضى وبواتر

يصيرُ أعزُ القومِ منها أذلةً ويَلْحقُ أطفالاً لهم بالأكابر » (١)

إن الكتاب السابق الذكر ، مليءٌ بالوعيد والتهديد ، وهدفه - بلا شك - تحطيم الثقة بالنفس لدى المسلمين .

---

* سورة الأنعام ، الآية ٩٣ .

** سورة الشعراء ، الآية ٢٢٧ .

*** من أسماء هولاكو .

(١) السلوك ، ج ١:٤٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد كانت جمل الكتاب قصيرة ، متتابعة ، ذات نسق موسيقي مخيف ، ألفاظها متوعدة ، منذرة ، تشير إلى قوة المغول وغرورهم ، وتقليلهم من شأن خصمهم . وقد اتكأ كاتب الرسالة على الأسلوب الشائع آنذاك من التزويق والصنعة والاستشهاد بالآيات القرآنية والشعر .

بدأ هولاكو منذ افتتاح كتابه بالتهديد والإقرار بقوته وعنفوان حكمه « من ملك الملوك شرقاً وغرباً ، القان الأعظم » [١] . ثم يطلب من المسلمين العظة من غيرهم قبل أن يقعوا في تجبر هولاكو « ... فاتعظوا بغيركم ، وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطا ، فتندموا ويعود عليكم الخطأ ... » [٢] .

ثم يقر ويعترف بأعمال الدمار والتخريب من قبل جيشه ، أعمال الموت والسلب والنهب والقتل بلا رحمة ، فهم وحوش كاسرة ، تفتك بالفريسة دون رأفة « فنحن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكا ... فأي أرض تأويكم ، وأي طريق تنجيكم ، وأي بلاد تحميكم ... » [٣] .

ويؤكد هولاكو قوة جيشه الخارقة حيث مال كاتب الرسالة إلى عنصري التهويل والمبالغة لدبّ الرعب في قلوب المسلمين « فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال ... » [٤] .

هذه الجيوش التي لا تمنعها أي حصون ، ولا تقاومها أي عساكر ، ولا يُسمع أي دعاء عليها .. فأي جيوش هذه !!؟؟

---

(١) السلوك ، ج ١:٤٢٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ١:٤٢٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١:٤٢٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ١:٤٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والذي يتأمل أسلوب كتابة هذه الرسالة ، يلاحظ أن كاتب هذه الرسالة مال إلى التهويل والوعيد لينذر المسلمين بشبح هذا العدو ويحذرهم منه .

وبعث هولاكو رسالة أخرى سنة ٦٥٩هـ إلى الملك الناصر [١] يوسف يقول فيها : « ... إنا نحن قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى ... وقتلنا فرسانها ، وهدّمنا بنيانها وأسرنا سكانها ، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز * : ﴿ قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة ، وكذلك يفعلون ﴾ . واستحضرنا خليفتها ، وسألناه عن كلمات فكذب ، فواقعه الندم . استوجب منا العدم . وكان قد جمع ذخائر نفيسة وكانت نفسه خسيسة ، فجمع المال ، ولم يعبأ بالرجال ... ، ونحن نعوذ بالله من التمام والكمال :

إذا تمَّ أمرٌ دنا نقصُه ... توقّ زوالاً إذا قيل : تم

إذا كنت في نعمةٍ فارْعها ... فإنّ المعاصي تُزيلُ النعم

وكم من فتىً بات في نعمةٍ ... فلم يدرِ بالموتِ حتى هجم

إذا وقفت على كتابي هذا فسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض ... تأمن شره ، وتنل خيره ... » [٢] .

لقد هدّد هولاكو الملك الناصر يوسف بتسليم الشام ، وإلا كان مصيره كمصير الخليفة المعتصم ، وكان كتاب هولاكو قوياً يحمل التهديد والوعيد والإنذار ككتابه السابق .

---

(١) الناصر يوسف : هو الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن محمد الظاهر بن غازي بن السلطان صلاح الدين ، ولد سنة ٦٢٧هـ ، صاحب الشام ، قتله هولاكو سنة ٦٥٩هـ . العبر ، ج٥:٢٥٦ .

* سورة النمل ، الآية ٣٤ .

(٢) السلوك ١:٤١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجاء الكتاب في عبارات سديدة ، محكمة ، رصينة ، كما اتكأ كاتب هذه الرسالة على نمط أسلوب الرسالة السابقة ، حيث اعتمد على المحسنات البديعية وتوشية عباراته بالاقتباس من القرآن الكريم والاستشهاد بالأبيات الشعرية .

شرع هولاكو رسالته بالتركيب « إنا نحن » ، الذي يوحي بالإجلال والعظمة ، العظمة التي نسبها هولاكو لنفسه غروراً وإكباراً .

ثم يستشهد بقوله تعالى * : ﴿ قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة ، وكذلك يفعلون ﴾ ، مشيراً إلى دخوله إلى بغداد ، والعمل على القضاء على الخليفة ورجال دولته « واستحضرنا خليفتها وسألناه عن كلمات ، فكذب ، فواقعه الندم ، استوجب منا العدم »[١] .

ثم يستشهد بأبيات شعرية فيها أسلوب التحذير من توقّي زوال النعمة ، ثم يخاطب الملك الناصر يوسف بقوله « فسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض ... »[٢] .

إذ يُفهم من هذه العبارة التنبيه والتحذير الواضحان للملك الناصر .

ويختتم هولاكو رسالته ببيتين من الشعر يلاحظ من خلالهما الغرور والتجبر والاعتزاز بالنفس ، وبث الرعب في قلوب المسلمين وتحطيم الروح المعنوية لديهم :

أين النجاة ولا مناصَ لهاربٍ ولي البسيطان : الثرى والماء

ذلّت لهيبتنا الأسود وأصبحت في قبضتي الأمراء والوزراء[٣]

---

* سورة النمل ، الآية ٣٤ .

(١) السلوك ، ١:٤١٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ١:٤١٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ١:٤١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبعث هولاكو رسالة أخرى إلى أهل حلب - يُلاحظُ الغرور فيها والتجبر - قائلاً : " انكم تضعفون عن لقائنا ونحن نقصد سلطانكم ، فاجعلوا لنا عندكم شحنة بالقلعة وشحنة بالبلد ، فإن انتصر علينا الملك الناصر ، فالأمر اليكم ، فإن شئتم أبقيتم على الشحنتين ، وإن شئتم قتلتموهما وإن كانت النصرة لنا ، فحلب وغيرها لنا وتكونون آمنيين " [١] .

فرد عليه السلطان رداً قصيراً من حيث عدد الكلمات ، قوياً من حيث المعنى والمضمون حيث قال : " ماله عندنا إلا السيف " [٢] .

إن الغرور والتجبر والقسوة سمة واضحة ، ومميزة تسيطر على ملوك التتار أجمعين ، ولا سيما في رسائلهم فقد بعث أبغا رسالة إلى الظاهر بيبرس سنة ٦٦٧هـ مضمونها : " أن الملك أبغا لما خرج من الشرق ، تملك جميع العالم ومن خالفه قتل ، فأنت لو صعدت إلى السماء ، أو هبطت إلى الأرض ، ما تخلص منا ، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحاً .. فكيف تشاقق ملوك الأرض ؟ " [٣] .

وفي سنة ٧٩٦هـ بعث تيمورلنك كتاباً إلى برقوق ، تكشف ألفاظه عن الإرعاد والتهديد والتجبر : " اعلموا أنا جند الله مخلوقون من سخطه ، ومسلطون على من حلّ عليه غضبه ، لا نرق لشاك ، ولا نرحم عبرة باك ، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا .. " [٤] .

---

(١) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ميكروفيلم في مركز الوثائق بالجامعة الأردنية ، شريط رقم ٥٣٧ ، ص ٢٥١ .

(٢) تاريخ الإسلام ، ٢٥٢ .

(٣) ذيل مرآة الزمان ، ج ٢:٤٠٧ .

(٤) تاريخ ابن الفرات ، م ٩ ، ق ٢:٣٧١ ؛ النجوم الزاهرة ، ج ١٢:٤٩ ؛ الدرة المضيئة : ١٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أجاد السلطان برقوق بالرد على خصمه قائلاً : " حصل الوقوف على ألفاظكم الكفرية ، ونزعاتكم الشيطانية ، وكتابكم يخبرنا عن الحضرة ، وسيرة الكفرة ، وبأنكم مخلوقون من سخط الله ، ومسلطون على من حل عليه غضب الله ، وإنكم لا ترقون لشاكٍ ، ولا ترحمون عبرة باك ، وقد نزع الله الرحمة من قلوبكم ، وذلك من أكبر عيوبكم ، وهذه من صفات الشياطين لا من صفات السلاطين .. " (١) .

ويهدد تيمور السلطان فيقول : " فخيولنا سوابق ، ورماحنا خوارق ، وأسنتنا بوارق ، وسيوفنا صواعق .. فمن سالمنا سلم ، ومن نال حربنا ندم ، ومن تكلم فينا بما لا يعلم منا جهل ... " (٢) .

وتبدو قوة ايمان السلطان برقوق ، وثقته بنصر الله وتأييده واضحاً في رده على تيمور حيث أشار إلى أنه رجل لا يهاب ولا يخاف ، رجل يخوض الحروب ولا يعمل حساباً لخصمه وندده : " ومن أعجب العجيب ، تهديد الرتوت بالتوت * ، والسباع بالضباع ، والكماة بالكراع ، نحن خيولنا برقية ، وسهامنا عربية وسيوفنا يمانية ، وليوثنا مصرية ... " (٣) .

والسلطان لا يهاب لكثرة جيوش تيمور : " فكم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة ، والقصاب لا يبالي بكثرة الغنم ، وكثير الحطب يفنيه القليل من الضرم .. " (٤) .

---

(١) تاريخ ابن الفرات ، م ٩ ق ٢ :٢٧٣ .

(٢) المصدر نفسه ، م٩ ق٢:٢٧٢ .

* الرتوت : مفردها الرُّت وهو الرئيس من الرجال في الشرف والعطاء لسان العرب ، م٢:٢٤ ؛ التوت : واحدته توتة ، وهو الفرصاد وهو شجر معروف . لسان العرب ، م٢:١٨ ، م٣:٢٣٤ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ، م ٩ ق ٢:٢٧٣ .

(٤) المصدر نفسه ، م ٩ ق ٢:٢٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتبادل الطرفان خطابات الصلح بينهما ، ومنها : نص خطاب ايلخان أحمد تكدار [١] ملك المغول بفارس إلى السلطان الملك المنصور قلاوون سنة ٦٨١ ، حيث يبدأ كتابه بإعلان إسلامه وسروره بانضمامه إلى الملة المحمدية : " فإنا ابتدأنا بتوفيق الله تعالى بإعلاء الدين واظهاره في إيراد كل أمر وإصداره تقديماً ، وإقامة نواميس الشرع المحمدي على مقتضى قانون العدل الأحمدي إجلالاً وتعظيماً ... " [٢] .

وقد سُرّ السلطان قلاوون بنبأ إسلام ايلخان احمد تكدار حيث قال في نص الرد عليه : " فالحمد لله على أن شرح صدره للإسلام ، وألهمه شريف هذا الإلهام ، كحمدنا لله على أنه جعلنا من السابقين الأولين إلى هذا المقال والمقام .. " [٣] .

يلاحظ من خلال مقدمة ردّ السلطان على كتاب أحمد تكدار أن السلطان مبتهج بنبأ إسلام السلطان أحمد تكدار ، وقد يُشك في أمر هذا النبأ، فهل إسلام تكدار صادق النية ، أم هو ذريعة وستارٌ لأعماله [٤] .

ومن الجدير بالذكر أنّ السلطان أحمد تكدار أشار إلى إسلامه في كتاب آخر جاء فيه " بسم الله الرحمن الرحيم وإنا جلسنا على كرسي الملك ونحن مسلمون ، فيتلقون أهل بغداد هذه البشرى ويعتمدون في المدارس والوقوف وجميع وجوه البرّ ما كان يُعتمد في أيام الخلفاء العباسيين ، ويرجع كل ذي حق إلى حقه في

---

(١) كان اسم هذا السلطان في الأصل تكدار ، وقد اتخذ اسم احمد عندما اعتنق الاسلام قبل سلطنته ، وهو الذي خلف أبغا على مملكة ايلخانات المغول بفارس ، انظر السلوك ، ج ١ ، ق٣ ، ص ٧٠٧ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ٨ /٦٥ ، مخطوط زبدة الفكرة ١٧٢ .

(٣) الدواداري : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، ميكروفيلم في مركز الوثائق بالجامعة الأردنية ، شريط رقم ٢٠ ، ص ١٧٣ .

(٤) انظر الأدب في العصر المملوكي : ٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أوقات المساجد والمدارس ، ولا يخرجون عن القواعد الإسلامية .... " [١] .

وقد طلب الصلح في كتابه إلى السلطان قلاوون ، ودعا إلى الوحدة بينهما ، لتعمر البلاد وتسكن الحروب والفتن ، وتحقن الدماء والأرواح " فإن وفق الله سلطان مصر لاختيار ما فيه صلاح العام ، وانتظام أمور بني آدم ، فقد وجب عليه التمسك بالمعرفة الوثقى وسلوك الطريقة المثلى بفتح أبواب الطاعة والاتحاد ، وبذل الاخلاص ، بحيث تعمر تلك المدائن والبلاد ، وتسكن الفتنة الثائرة وتغمد السيوف الثائرة ...." [٢] .

وكما هو معروف ، فإن السلاطين المسلمين يجنحون للصلح ، طالما أن الصلح يفيد موقفهم السياسي من الخصم ، ولكنهم لا يقبلون بأي صلح ، ولا يساومون على دينهم ، بل يقبلون الصلح مبنياً على أسس وقواعد تحافظ على كيانهم وقوّتهم أمام الأخطار :" وأما الاشارة إلى أن باتفاق الكلمة تنجلي ظلم الاختلاف ، وتدرّبها من الخيرات الأخلاف ، ويكون بها صلاح العالم ، وانتظام شمل بني آدم ، فلا رادّ لمن فتح أبواب الاتحاد ، وجنح إلى السلم فما حادّ ولا حاد ، ومن ثنى عنانه من المكافحة ، كان كمن مدّ يد المصالحة للمصافحة ، والصلح وإن كان سيد الأحكام ، فلا بد من أمور تُبنى عليها قواعده ، ويُعلم من مدلولها فوائده ....." [٣] .

وقد بعث ايلخان غازان إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون يطلب الصلح بأسلوب فظّ ، بأسلوب التهديد والارعاد ، حيث يذكر قوة عساكره وعددها : " وها

---

(١) زبدة الفكرة ، ١٧١ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ٨:٦٨ .

(٣) زبدة الفكرة ، ١٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نحن الآن ايضاً مهتمون بجمع العساكر المنصورة ، ومشحذون غرار عزماتنا المشهورة ، ومشتغلون بصنع المجانيق وآلات الحرب ، وعازمون بعد الانذار ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً . " [١] .

يبدو الغرور والتجبر والتهديد سمة غالبة على هذا الكتاب ، فأي صلح يريد وهو مُصرٌ على التهديد " ... ، فما بعد الانذار من عاذر ، وإن لم تتداركوا الأمر ، فدماء المسلمين ، وأموالهم ، مطلولة بتدبيرهم ، ومطلوبة منهم عند الله على طول تقصيرهم .... " [٢] .

وكان رد السلطان الناصر عليه رداً قوياً جريئاً ، حيث لم يأبه لعساكره العديدة ، وعدده الكثيرة ، فجاء في نص الرد عليه قوله : " وأما ما أرعدوا به وأبرقوا ، وارسلوا فيه عنان قلمهم وأطلقوا ، وما ابدوه من الاهتمام لجمع العساكر ، وتهيئة المجانيق إلى غير ذلك مما ذكروه من التهويل ، فالله تعالى يقول: ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ [٣] .

ويؤكد السلطان الناصر ، أن من قصد وأراد الصلح ، لا يهدد ويخوّف ، وكيف سيؤمن الناس لنية السلطان غازان بطلب الصلح بهذه الطريقة : وأما قولهم وإلا فدماء المسلمين مطلولة ، فما كان أغناهم عن هذا الخطاب ، وأولاهم بالاّ يصدر اليهم عن ذلك جواب ، ومن قصده الصلح والاصلاح كيف يقول هذا القول الذي عليه فيه من جهة الله تعالى ومن جهة رسوله أي جناح ؟ وكيف يضمر هذه النية،

---

(١) السلوك ، ج ١، ق٣ ، ١٠١٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ج١ ، ق ٣ ، ١٠١٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ج١ ، ق ٣ ، ١٠٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وينجح بهذه الطوية ، ولم يخف مواقع هذا القول وخلله ؟ والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : نية المرء أبلغ من عمله .. " [١] .

وجيوش الناصر في استعداد وتأهب للعدو ، لا تهمهم كثرة العدد والعُدة : "وإذا كان الأمر كذلك فالبشرى لأهل الإسلام ، بما نحن عليه من الهمم المصروفة إلى الاستعداد ، وجمع العساكر التي تكون لها الملائكة الكرام إن شاء الله تعالى من الأنجاد ، والاستكثار من الجيوش الإسلامية المتوفرة العدد ، المتكاثرة المدد ، الموعودة بالنصر الذي يحفها في الظعن والإقامة ... " [٢] .

ويؤكد الناصر نيته نحو الصلح والسلم ، ولا سيما اذا جنح غازان للسلم ، وتمسك بالدين المحمدي تمسكاً وثيقاً عميقاً قوياً ، اذا جنح الملك للسلم جنحنا لها ، واذا دخل في الملة المحمدية ممتثلاً ما أمر الله به مجتنباً ما عنه نهى ، وانضم في سلك الايمان ، وتمسك بموجباته تمسك المتشرف بدخوله فيه لا المنّان ، ... وينتظم إن شاء الله شمل الصالح أحسن انتظام ، ويحصل التمسك من الموادعة والمصافاة بعروة لا انفصال لها ولا انفصام ، وتستقر قواعد الصلح على ما يرضي الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام ... " [٣] .

يلاحظ من رسالة ايلخان غازان إلى السلطان الناصر ورسالة رد الناصر عليها ، أن كلاً من الرسالتين تمتاز بالعظمة والفخر والإشارة إلى قوة وبطش كل منهما [٤] .

---

(١) السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ١٠٢٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٣ ، ١٠٢٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٣ ، ١٠٢٣ .

(٤) انظر عصر سلاطين المماليك ، م٥ : ١٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الجدير بالذكر أن أشير إلى كتاب كتبه السلطان الناصر بعد هزيمة التتار بشقحب سنة ٧٠٢هـ إلى السلطان غازان يعلمه ما جرى بجيوشه ، إثر هذه الهزيمة النكراء : " فلو رأيت أيها الملك عساكرك . إما ذليلاً أسيراً أو جريحاً عفيراً. يوم تضاعف فيه المقتول والمأسور ، وتصاحب فيه الذئاب والنسور ، وعادوا أصحابك طعاماً للذياب ..... " [١] .

وقد ختم السلطان كتابه بتهديد غازان ، إن مال عن الحق وطريق الصواب ، حيث طرح عليه أمرين : أن يخرج من العراق ويتركها للخليفة كما سيفعل هو (أي الناصر) وإن لم يخرج غازان فهو " لا محالة هالك " [٢] . وكان الناصر في تهديده لغازان قوي العبارة صريح النص حيث قال : " وقد أوضحنا لك الحق فلا تميل ، وهديناك إلى أقوم سبيل ، وتتقدم بارسال رسلنا المرسولة اليك ، ولا تعوّقهم يكون وبالاً عليك ، وكأن قد خيلت لك نفسك أن جيوشك تعبر الديار المصرية ، صدقت ولكن على غير حالة مرضية ، أما الخيول فعلى أيدي عساكرنا مجنوبة ، والطبول في أعناقهم مقلوبة ، وأما الرجال ففي أعناقهم الحبال ، والسلاسل والأغلال ، فعادت مُغلك كالكلاب ، في أيدي أسود الغاب ، فاختر لنفسك إما الدخول إلى خراسان سريعاً ، وأما الخروج عن الروم والعراق جميعاً .. " [٣] .

وفي سنة ٦٩٩ هـ بعث غازان نص أمان لأهالي مدينة دمشق ، بعد هزيمة المسلمين في الخزندار ، وقد فتك جيش غازان بالمدينة وخربوا وسفكوا الدماء وفعلوا الأفعال القبيحة . وقد جاء في هذا النص : " فصدرت مراسمنا العالية ألا

---

(١) كنز الدرر : ١٢١ .

(٢) المصدر نفسه : ١٢١ .

(٣) المصدر نفسه : ١٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يتعرض أحد من العساكر المذكورة على اختلاف طبقاتها ، وتباين أجناسها واختلاف لغاتها لدمشق وأعمالها وساير البلاد الشامية الإسلامية ..... " [١] .

وبالرغم من هذا الأمان ، فإن عساكر غازان تفننت بالعبث والتخريب في دمشق وضواحيها .

أمّا كتب الهدن بين المسلمين وحلفاء التتار فكانت كثيرة ، ويبدو السبب في ذلك أن كثرة المراسلات بين المسلمين وحلفاء التتار تزيد وتقوي العلاقات السياسية بين الطرفين ، ليكونوا لهم عيناً قوية على عدوهم اللعين ، وإن تقويه مثل هذه العلاقات بين المسلمين وحلفاء عدوهم لا بد أن تقلل من شأن التتار لدى حلفائهم .

ومن نسخة هدنة عقدت بين المنصور قلاوون وابنه ، وبين حكام الفرنج بعكا وما معها من بلاد سواحل الشام سنة ٦٨٢هـ جاء فيها : " ..... وعلى أنه إن قصد البلاد الشامية - والعياذ بالله عدوٌ من التتار وغيرهم من البر ، وانحازت العساكر الإسلامية من قدام العدو ، ووصل العدو إلى القرب من البلاد الساحلية ، الداخلة في هذه الهدنة وقصدوها بمضرّة ، فيكتب إلى كفيل المملكة بعكا والمقدّمين بها أن يدرءوا عن بيوتهم ورعيتهم وبلادهم بما تصل قدرتهم إليه ... " [٢] .

وفي سنة ٦٩٢هـ عُقدت هدنة بين الملك الأشرف وبين حاكم الريدأرغون أكد فيها أن لا يقدم نجدة أو معاونة لأعداء الدين : " وعلى أنه متى طلب الباب برومية وملوك الفرنج ، والروم والتتار ، وغيرهم من الملك دون حاكم أو من أخويه أو من

---

(١) كنز الدرر : ٢ ، السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ١٠١١ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ١٢ : ٦٠ ، ٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بلادهم انجاداً أو معاونة بخيّالة أو رجّالة أو مال ، أو مراكب أو شوان * أو سلاح - لا يوافقهم على شيء من ذلك لا في سرّ ولا جهر ، ولا يعين أحداً منهم ، ولا يوافقه على ذلك ومتى اطلعوا على أن احداً منهم بقصد بلاد الملك الأشرف لمحاربته أو لمضرته بشيء ، يُعرّف الملك الأشرف بخبرهم ، وبالجهة التي اتفقوا على قصدها في أقرب وقت ، قبل حوطتهم من بلادهم ، ولا يخفيه شيئاً من ذلك ... " (١) .

وسجلت المصادر الأدبية نماذج لكتب قد بعثت إلى حلفاء التتار تتضمن التقريع والتهكم ككتاب شهاب الدين محمود الحلبي إذ بعث كتاباً إلى متملك سيس (٢) جاء فيه : " ..... ولقد عرّض نفسه وأصحابه لسيوفنا التي كان من سطواتها في أمان ، ووثق بما ضمن له التتار من نصرة ، وقد رأى ما آل إليه أمر ذلك الضمان ، وجرّ لنفسه بموالاة التتار عناءً كان عنه في غنى ، وأوقع روحه بمضافرة المغول في حومة السيف التي تخلّفت أولياءه " من هنا ومن هنا ، واقتحم بنفسه موارد هلاك سلبت رداء الأمن عن منكبيه ، واغتر هو وقومه بما زين لهم الشيطان من غروره .... " (٣) .

وقال في كتاب آخر : " .. وعقد بحبال الغرور آماله ، وحسّن له التمسك بالتتار الذين هم لهابتنا محصورون ، وفي ديارهم مأسورون ، وفي حبائل أدبارهم عاجزون عن حفظ ما لديهم ، قاصرون عن ضبط ما استلبته سرايانا المنصورة من يديهم ... " (٤) .

---

* المقصود بها المراكب البحرية .

(١) صبح الأعشى ، ج ١٤ : ٦٧ .

(٢) سيس : بلد يقع شمال العراق وجبال طوروس وارمينيا . معجم البلدان ، ج٣:٢١٧ .

(٣) الحلبي ، شهاب الدين أبو الثناء محمود ، حسن التوسل في صناعة الترسل ، تحقيق اكرم عثمان يوسف ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص : ٣٤٢ .

(٤) حسن التوسل ، ٣٧١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الرسائل التي تحدثت عن التتار " الرسالة القبرصية [١] " لابن تَيْمِيَّة ، وقد شكّك ابن تيمية في إسلام التتار وحسن نيتهم لدين الإسلام وأشار إلى أعمالهم القبيحة ، وأكد على وجوب قتالهم : " وفي هذه المدة لما شاع عن العامة أن التتار مسلمون ، أمسك العسكر عن قتالهم ، فقتل منهم بضعة عشر ألفا ، ولم يقتل من المسلمين مائتان ، فلما انصرف العسكر إلى مصر ، وبلغه ما عليه هذه الطائفة الملعونة من الفساد وعدم الدين ، خرجت جنود الله وللأرض منها وئيد ، قد ملأت السهل والجبل في كثرة وقوة وعدة وإيمان ، وصدق ، قد بهرت العقول والألباب ، محفوفة بملائكة الله التي ما زال يمد بها الأمة الحنيفة المخلصة لبارئها، فانهزم العدو بين أيديها ولم يقف لمقابلتها ثم أقبل العدو ثانياً فأرسل عليه من العذاب ما أهلك النفوس والخيل ، وانصرف خاسئاً وهو حسير ، وصدق الله وعده ونصر عبده وهو الان في البلاء الشديد ، والتعكيس العظيم والبلاء الذي احاط به والإسلام في عز متزايد وخير مترافد .. " [٢] .

ومن الجدير بالذكر أن ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) ، قد أعلن فتواه بوجوب قتال التتار ، فهم "لا يقاتلون على دين الإسلام ، بل يقاتلون الناس حتى يدخلوا في طاعتهم .. " [٣] .

---

(١) بعث ابن تيمية رسالة الى ملك سراجوس ، ذكر التتار الذين ادّعوا الإسلام مثل الملك سراجوس ، وسَمّى رسالته بالقبرصية . وسأشير في الفصل الثاني إن شاء الله لرسالة أخرى من رسائل ابن تيمية متعلقة بالتتار .

(٢) احمد بن تيمية ، الرسالة القبرصية ، مكتبة انصار السنة المحمدية ١٩٤٦ ، ط ٢ ، ص ٢٢-٢٣ .

(٣) ابن تيمية ، مجموعة فتاوي ابن تيمية ، مطبعة كردستان العلمية ، القاهرة ، ١٣٢٩هـ ، م ٤:٢٩٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصـل الثاني

النثر الفني العربي إبّان الغزو المغولي

* الدعوة إلى الجهاد
* تصوير المعركة
* الأدوات الحربيّة والسلاح
* صورة الجيش المسلم
* صورة البطل المسلم
* صـورة المغـول
* رثـاء المـدن

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

النثر الفني العربي إبّان الغزو المغولي

- دراسة مضمون -

لقد كتب الكُتّاب نصوصاً نثرية مختلفة ، منها : الرسائل الجهادية ، ورسائل العهود ، وكتب البشرى ، ورسائل الهدن والتهديد ، والمقامات ، وخطب الوعظ والإصلاح ، وغيرها .

وقد اشتملت معظم الفنون النثرية على مضامين مختلفة ومتنوعة ، كالحثّ على الجهاد ، وتصوير الانتصارات ، ومدح الجيش المسلم ، وتصوير العدو ... الخ .

وسأدرس في هذ الفصل -إن شاء الله تعالى- النثر الفني العربي من حيث المضمون والمحتوى ، مبينة أثر الغزو المغولي فيه ، مشيرة إلى مشاركة العدد الكبير من الكتاب في التعبير عن هموم المسلمين وقضاياهم آنذاك .

الدعوة إلى الجهاد وصدّ الخطر المغولي :

لقد كان للنثر دور كبير في صدّ ومقاومة العدوان المغولي ، فلم يخلُ كتاب تقليد ، أو خطبة ، أو نص عهد ، أو هدنة ، أو حتى كتب التهاني ، من الحثّ على الجهاد في سبيل الله وقتال التتار ، وقد تعاون على ذلك الأدباء والعلماء ، فالتاريخ الإسلاميّ ، لم ينسَ دور الشيخ العالم ابن تَيْمِيَّة شيخ الإسلام (ت٧٢٨هـ)، في الوقوف ضد التتار .

وعندما غزا التتار بلاد الشام بقيادة غازان ، حثّ ابن تَيْمِيَّة الناس على الثبات في وجههم ومحاربتهم ، ولم يكتفِ بدعوة الشعب للجهاد فقط ؛ بل قام

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بمراسلة السلاطين * وحثهم على مجابهة التتر ؛ مثال ذلك رسالته المشهورة إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار ، الذي حثه فيها على الجهاد في سبيل الله لأنه فرضٌ عليهم وواجب على كل مسلم قادر ، ومن لم يقدر أن يجاهد بنفسه فعليه أن يجاهد بماله ، إن كان له مال يتسع لذلك ، ... ، فمن ترك الجهاد عذّبه الله عذاباً أليماً بالذل وغيره ، ونزع الأمر منه فأعطاه لغيره ، فإنّ هذا الدين لمن ذبّ عنه »[1].

والجهاد من وجهة نظر ابن تَيْمِيَّة ، يوحّد بين قلوب المسلمين ، أما إذا تركته الأمة ، فستقع الفتن الداخلية بينهم ، وينشغلون عنه بمشاكلهم وصراعاتهم[2] .

وأشارَ ابن تيمية في رسالته إلى السلطان أن في حركة الجيوش في سبيل الله فوائد منها :

أولاً : «طمأنينة قلوب أهل البلاد حتى يعمروا ويزدرعوا ، وإلا فما دامت القلوب خائفة ، فلا يستقيم الحال .

ثانياً : أن البلاد الشمالية كحلب ونحوها ، فيها خير كثير ورزق عظيم - ينتفع به العسكر .

ثالثاً : أنه يقوّي قلوب المسلمين في تلك البلاد من الأعوان والنصحاء ، ويزداد العدو رعباً ، وإن لم تحصل حركة فترت القلوب ، وربما انقلب قومٌ فصاروا مع العدو فإن الناس مع القائم . ولما جاء العسكر إلى الشام ، كان فيه مصلحة عظيمة ، ولو تقدّم بعضهم إلى الثغر ، لكان ذلك في غاية الجودة .

---

* «تفرّد شيخ الإسلام ابن تيمية بخصائص لم يؤتها علماء زمانه منها التدخل في سياسة الدولة وتوجيه النصح إلى السلاطين دون خوف لما فيه مصلحة المسلمين» ، انظر رسالة ابن تيمية إلى السلطان الملك الناصر ، ص ٣ .

(١) ابن تيمية ، رسالة إلى السلطان الناصر في شان التتار ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٦ ، ص ١٣ ، ١٤ .

(٢) انظر رسالة ابن تيمية ، ص ١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رابعاً : أنهم إن ساروا أو بعضهم ، حتى يأخذوا ما في بلد الجزيرة من الإقامات والأموال السلطانية ، من غير إيذاء المسلمين كان من أعظم الفوائد ، وإن ساروا قاطنين متمكنين نزلت إليهم أمراء تلك البلاد من أهل الأمصار والجبال ... فإن غالب أهل البلاد قلوبهم مع المسلمين ..» [1] .

ويحث ابن تَيْمِيَّة السلطان الناصر على جهاد التتار ، بأن يبدأ المسلمون بالقتال لا أن ينتظروا قدوم العدو إلى ديارهم إذ يقول : «فلا يجوز تمكينهم حتى يعبروا ديار المسلمين ، بل الواجب تقدم العساكر الإسلامية إلى ثغور المسلمين ..» [2] .

ويستخدم ابن تَيْمِيَّة أسلوب التذكير بأمجاد السابقين ، ليقوّي من عزيمة الناصر ، ليقاتِل العدو ولا سيّما بعد هزيمتهم في الخزندار سنة ٦٩٩هـ ، إذ يقول مشيراً إلى انتصارات المسلمين : « ... ما قصدهم المسلمون قط إلا نُصروا كنوبة عين جالوت والفرات والروم ..» [3] .

وقد نجح ابن تَيْمِيَّة في حثّ السلطان وعساكره على جهاد التتار ونسيان هزيمتهم فقد سجلت المصادر الأدبية انتصارهم العظيم على التتار في شقحب سنة ٧٠٢هـ .

وبحث ابن تَيْمِيَّة على جهاد التتار في كتبه الأخرى قائلاً : « ... وقد أمر الله المسلمين أن يقاتلوا أعداءه الكفار ويوالوا عباده فيجب على المسلمين من جند الشام ومصر واليمن والمغرب وجميعهم ، أن يكونوا متعاونين على قتال الكفار ،

---

(١) رسالة ابن تيمية ، ص ١٨ ، ١٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وليس لبعضهم أن يقاتل بعضاً لمجرد الرياسة والأهواء ، فهؤلاء التتار أقل ما يجب عليهم أن يقاتلوا ..» [١] .

ومن العلماء من قام بمراسلة السلاطين أيضاً العالم النووي الذي حثّ المسلمين على الجهاد وقدم لهم النصيحة بأمور الحكم والدين ، إذ حث السلطان بيبرس مشيراً إلى أهمية الجهاد الواجب على كل مسلم قادر : « ... وكان الجهاد فرض كفاية فإذا قرر السلطان له أجناداً مخصوصين ولهم أخباز معلومة من بيت المال ، كما هو الواقع تفرغ باقي الرعية لمصالحهم ومصالح السلطان [٢] .

وقد أشار النووي في كتاب آخر له ، إلى إقبال السلاطين على الجهاد بشغف وحماس شديدين ، ولم يكتفِ النووي بتقديم النصيحة للسلاطين بأمر الجهاد بل أشار إلى فتوحاتهم وإلى كوْن السلطان نعمة من الله سبحانه وتعالى منّها الله على المسلمين ليدافع عن الإسلام والحق إذ يقول : « ... ، وقد أنعم الله علينا وعلى سائر المسلمين بالسلطان أعزّ الله أنصاره فقد أقامه لنصرة الدين والذّبّ عن المسلمين وأذل له الأعداء من جميع الطوائف ، وفتح عليه الفتوحات المشهورة في المدة اليسيرة وأوقع الرعب منه في قلوب أعداء الدين وسائر الماردين ، ومهّد له البلاد والعباد ، وقمع بسيفه الزيغ والفساد ، وأمدّه بالإعانة واللطف والسداد ، فلله الحمد على هذه النعم المتظاهرة ..» [٣] .

وقد سجلت المصادر الأدبية مواقف بعض السلاطين اتجاه الجهاد أمثال السلطان قطز الذي وقف بنفسه خطيباً ، يحث الناس للخروج إلى الجهاد في

---

(١) مجموعة فتاوى ابن تيمية ، م ٤ ، ص ٣٠١ .

(٢) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، السيوطي ، مطبعة الموسوعات ، مصر ، ج٢ /٧٦ .

(٣) حسن المحاضرة ، ج ٢/٧٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سبيل الله إذ يقول : «يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال ، وأنتم للغزاة كارهون ، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني ، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته ، فإنّ الله مُطّلع عليه ، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين ...»[1]، وظلّ يحثهم على القتال «وحذرهم عقوبة الله ، فضجوا بالبكاء وتحالفوا على الاجتهاد في قتال التتر ودفعهم عن البلاد» [2] .

على الرغم من قصر هذه الخطبة ، وخلوّها من الزخرف والتزويق إلا أنها مؤثرة ، قوية الكلمة ، رصينة ، جريئة العبارة ، تؤثر في السامع ، وتحمله مسؤولية التقاعس عن الجهاد [3] .

ويحث الكاتب شهاب الدين محمود الحلبي ، على قتال العدو والإحاطة بهم ، وإنزال العذاب بهم من كل جانب إذ يقول : « ... ، والإحاطة بعدوّ الله من كل جانب، وإنزال نفوسهم على حكم الأمريْن من عذاب واصب ، ويُتم ناصب ، وإحالة وجودهم إلى العدم ، وإجالة السيوف التي إنْ أنكرتها أعناقهم بالعهد من قدم ، واصطلامهم على أيدي العصابة المؤيّدة بنصر الله في حربها ...» [4] .

وكذلك كان الأمر بالنسبة للسلطان الظاهر بيبرس ، الذي أحبّ الجهاد حباً عميقاً ، ورغّب عساكره به وبذل نفسه في قتال الأعداء . وقد أشار ابن شداد إلى ذلك قائلاً : «لما عُلم أنّ الجهاد من قواعد الإسلام الخمس ، وأن الظفر بالأعداء لا يُنال إلا بشقّ النفس ، وأن الله تعالى فرض الجهاد على عباده ، وأجزل الأجر لمن بذل فيه غاية جهده واجتهاده . - إلى أن يقول - بذل نفسه النفيسة في مواطن القتال،

(١) السلوك ، ج ١ ، ص ٤٢٩ .

(٢) السلوك ، ج ١ ، ص ٤٣٠ . انظر العلاقات السياسية بين المماليك والمغول للمؤلف فايز عاشور ، ص ٤٠ .

(٣) انظر الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية : ٥٤٨ .

(٤) حسن التوسل ، ص ٢٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وسبق الأقران إلى النزال ، وصبرت عارفة لذلك نفس حرة ، وأثبت في مستنقع الموت رجله متيقناً من الله النصرة ..» [١] .

وقد خطب الخليفة أبو الربيع سليمان * بالناس مذكراً بالجهاد ، إذ يقول : « ... أيها الناس ، اعلموا أنّ الإمامة فرض من فروض الإسلام ، والجهاد محتوم على جميع الأنام ولا يقوم على الجهاد إلا باجتماع كلمة العباد ..» [٢] .

وقد حثّ الخليفة الناس على الجهاد وقتال الأعداء قائلاً :

« ... واخلصوا نياتكم تنصروا وقاتلوا أولياء الشيطان ، تظفروا ولا يروعنكم ما جرى ، فالحرب سجال والعاقبة للمتقين ، والدهر يومان والآخر للمؤمنين ...» [٣] .

ومن الخطباء الذين حثّوا الناس على الجهاد وإصلاح الحال والوحدة ، ابن المنير الاسكندري حيث دعا المسلمين إلى الاعتبار وإصلاح أمورهم بعد الغزو ، وبث الحماس والعزيمة في قلوبهم حيث يقول : « ... فالله الله الاعتبار ، الاعتبار ، فأنتم السعداء إذا وعظتم بالاعتبار ، أصلحوا ما فسد فإن الفساد يقدمه الدمار واسلكوا الجدد ، تنجوا في الدنيا من العار ، وفي الآخرة من النار ، اتقوا الله وأصلحوا تفلحوا وسلموا تسلموا ، وعلى التوبة صمموا واعزموا ..» [٤] .

---

(١) تاريخ الملك الظاهر ، ص ٣١٧ .

* سليمان بن أحمد بن علي ، أبو الربيع ، الخليفة المستكفي بالله ، ابن الحاكم بأمر الله ، من خلفاء الدولة العباسية الثانية بمصر ، ولد ٦٨٣هـ مات ٧٤٠هـ . الوفيات ، ج١/٣٣٠ .

(٢) ذيل مرآة الزمان ، ج ١٨٩:٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١٨٩:٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ٢٠٩/٤ ؛ مخطوط تاريخ الإسلام ، ص ١٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد حثّ الأدباء السلاطين كافة على الجهاد من خلال كتب التقاليد وغيرها ، مثال ذلك الكاتب فخرالدين بن لقمان الذي يؤكد فريضة الجهاد ، ويشير إلى أجر المجاهد عند الله ، ويحثّ السلطان الظاهر على الجهاد بتذكيره بانتصاراته وعزائمه حيث يقول : «ومما يجب ذكره أمر الجهاد الذي أضحى على الأمة فرضاً ، وهو العمل الذي يرجع به مسودّ الصحائف مبيضاً ، وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم ، وأعدّ لهم عنده المقام الكريم ، وخصّهم بالجنة التي لا لغو فيها ولا تأثيم ، وقد تقدمت لك في الجهاد يدٌ بيضاء أسرعت في سواد الحُسّاد وعرفت منك عزمة هي أمضى مما تجنه ضمائر الأغماد ، وأشهى إلى القلوب من الأعياد ..» [1] .

وتجد الكاتب محيي الدين بن عبدالظاهر ، يذكر السلطان المنصور قلاوون بجهاد الأعداء ، ويدعوه إلى الاحاطة بهم وقتالهم ، ليأخذ ثأر الخلافة للمسلمين إذ يقول : « فليكن ذلك نصب العين ، وشغل القلب والشفتين ، وأعداء الدين من أرمن وفرنج وتتار ، فأذقهم وبال أمرهم في كل إيراد للغزو وإصدار ، وثُرْ لأن تأخذ للخلفاء العباسيين ولجميع المسلمين منهم الثأر ... » [2] .

كما يذكّر القاضي شمس الدين ابراهيم بن القيسراني الملك الناصر محمد بن قلاوون بجهاد الكفار ، مشيراً إلى مواقف والد الناصر وأخيه الأشرف صلاح الدين ليكونا عبرة وعظة له إذ يقول : « ... وقد عرفت سنن السلطانيين الشهيدين والدك وأخيك -قدس اللهُ روحهما - في الاعتناء بجهاد الكفار ، وغزوهم في عقر الدار ، وموقف أحدهما في موطن زلت فيه الأقدام عن الإقدام ، واجتمع فيه الكفر على الإسلام ... » [3] .

---

(١) السلوك ، ج ١ ، ق ٢:٤٥٦ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ١٠/١٢٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١٠/٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكذلك الأمر عند القاضي علاء الدين بن عبدالظاهر [١] ، الذي يذكّر الملك المظفر ركن الدين بيبرس المنصوري الجاشنكير بالجهاد الذي أعده حصن الإسلام ومصونه ، وقد دعاه إلى تجنيد الجيوش ، وجمع الكتائب لحصار ودحر العدو كما يقول : وأهم ما احتفلت به العزائم ، واشتملت عليه همم الملوك العظائم وأشرعت له الأسنة وأرهفت من أجله الصوارم ، أمر الجهاد الذي جعله الله تعالى حصناً للاسلام وجُنة ، واشترى فيه أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، فجنّد له الجنود ، واجمع له الكتائب ، واقض في مواقفه على الأعداء من بأسك بالقواضي القواضب، واغزهم في عقر الدار ، وأرهف سيفك البتار : لتأخذ منهم لمسلمين بالثّار .. »[٢] .

ولم يكتف الكتاب بحث الملوك والسلاطين على الجهاد فحسب ، بل تجدهم يحثون نواب الثغور والأمراء أيضاً ، يحثونهم بالذب عن ثغورهم ومدنهم كما يقول المقر الشهابي بن فضل الله .... » ، وليأخذ للجهاد أهبته ، ويعجُل إليه هبّته ، وليقف من وراء البلاد الشامية المحروسة درينة لأسوارها المنيعة ، ونطاقاً على معاقلها الرفيعة ... » [٣] .

تصوير المعركة

أشارت معظم المصادر بتنوعها إلى معارك المسلمين والمغول ، حيث وصفت القتال بينهما ، لقاء الفريقين ، طريقة القتال ، قوة القتال ، نتيجة المعركة ، وتصوير النصر وأموراً أخرى ، سيلاحظها القارىء من خلال عرض وتحليل بعض

---

(١) علاء الدين : هو علي بن محمد بن عبد الظاهر من القضاة ت ٧١٧هـ ، انظر الدرر الكامنة ، م٣/١٨٣ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ١٠/٧٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١٢/١٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النماذج التالية .

فقد وصف النسوي معركة بين التتار وقواد السلطان جلال الدين في جرجان سنة ٦١٩هـ ، حيث التحم الفريقان في حلقة من النيران في معركة حامية الوطيس ، تقطع السيوف الرؤوس وتحصد الرماح الأحشاء حيث يقول : « .... ووصل التاتار * بعدهما بيومين ، وتصاف الفريقان ، وعند ذلك حمي الوطيس ، واختلط المرؤوس ** والرئيس . فكنت ترى السيوف للهامات دامغة ، والرماح في الأكباد والغة ، وثارت عجاجة غبراء سترت العيون عن الأشباح ، فلم تعرف الرماح من الصفاح ... »[1] .

كما وصف النسوي معركة أخرى بين السلطان جلال الدين والتتار في ظاهر أصفهان سنة ٦٢٤هـ حيث لمعت السيوف والخناجر منها ، حتى صار نهاراً مضيئاً منيراً ظلام المعركة ، إذ يقول : « وخرج السلطان في اليوم الموعود للمصاف ، فرتب الجيوش قلباً كمجتمع الليل ، وميمنة كمندفع السيل ، وميسرة مشحونة بأشاهب الخيل ، وأشرقت الأرض من الوميض ولمعان السمر والبيض ... »[2] .

وكان سير القتال في المعركة قوياً ، فلو استطاعت الأرض أن تخرج صوتاً لسمعت صوت رنين السلاح والحديد ، كما كان القتال عنيفاً يشيب هوله الذوائب حيث يقول النسوي : « ولو أحست الأرض لرنّت من ثقل الحديد ، والمشي الوئيد ، فالتقوا على حرب أشابت الذوائب ، وأنارت الكواكب .. وحملت آخر النهار ميمنة السلطان على ميسرة التاتار جملة أخرجتها إلى الفرار وحرمتها جانب القرار ،

* هكذا وردت في النص .

** هكذا وردت في النص .

(١) سيرة جلال الدين ص ١٣٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وركبوا أكتافهم فقتلوا منهم أنّى يثقفونهم ... » [1] .

لقد أنشأ الكاتب محيي الدين بن عبدالظاهر كتاب بشرى أرسله قطز إلى ملك اليمن يبشره بنصر المسلمين في وقعة عين جالوت ، حيث وصف فيه سير القتال وصوّر عظمة النصر .

استهلّ ابن عبدالظاهر كتابه بالدعاء لملك اليمن ثم بشّره بفرحة النصر قائلاً: « أعزّ اللّه تعالى أنصار المقرّ الشريف العالي ، المولويّ ، السلطاني ، الملكي، المنصوري ، وأعلى مناره ، وضاعف اقتداره ، نعلمه أنّه لما كان النصف من شهر رجب الفرد ، فتح الله تعالى بنصر المسلمين على أعداء الدين ... » [2] .

ثم وصف ابن عبدالظاهر عظمة النصر ، فيوم النصر ، يوم أغرّ كان لوقعه أثر كبير ، عبيره يفوح عبر الأرجاء ، ولوقعه صمٌّ الدهر فلن يُسمع بنظير له ، ونشر المقاتلون الغبار بخيولهم إذ ارتفع على البدر فستره ، يقول محيي الدين : « صدرت هذه التهنئة إليه راوية للصدق عن اليوم المحجل :

يوم غدا بالنقع فيه يهتدي من ضلّ فيه بأنجم المُرّانِ

ففي أذن الدهر من وقعه صمم ، وفي عرنين البد من نقعه شمم ، ترفعه رواة الأسل من الأسنة ، ويسنده مجتّ العوالي عن مجرّ الأعنة ... » [3] .

هذا النصر الذي مكر الله بالتتار وأذلّهم ، وخابت آمالهم وأمانيهم ، يقول ابن عبدالظاهر : « أما النصر الذي شهد الضرب لصحته ، والطعن بنصيحته فهو أن التتر خذلهم الله تعالى ، استطالوا على الأيام ، وخاضوا بلاد الشام ، ... وقد

---

(١) سيرة جلال الدين ص ٢٣٥ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ٣٨٦:٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ٣٨٦:٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أرخت الغفلة زمامهم ، وقاد الشيطان خطامهم ، وعاد كيدهم في نحورهم »[1] .

وتنتقل أخبار المسلمين إلى التتار ، وكذلك أخبار التتار إلى المسلمين في وقعة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ ، حتى حلّ الظلام ، وصار اللقاء بينهما في ميدان المواجهة ، فكان الضرب عنيفاً ، حيث اصطاد كل واحد منهما الآخر ، يضرب ويطعن ويسفك الدماء ، ليسجلا معركة شديدة ، يقول محيي الدين : « ... ولم تزلْ أخبار المسلمين تنتقل إلى الكفار ، وأخبار الكفار تنتقل إلى المسلمين ، إلى أن خلط الصباح فضته بذهب الأصيل ، وصارَ اليوم كأمس ، ونُسخت آية الليل بسورة الشمس ، واكتحلت الأعين بمرور السُبّات ، وخاف كلٌ من المسلمين البيَات :

ينامُ بإحدى مُقْلتيه ويتقي بأخرى الأعادي فهو يقظان نائم

إلى أن تراءت العين بالعين واضطرم نار الحرب بين الفريقين ، فلم تر إلاّ ضرباً يجعل البرق نضواً ، ويترك في بطن كل من المشركين شِلْواً ، حتى صارت المفاوز دلاصاً ، ومراتع الظُبا للظُبا عراصاً ، ... »[2] .

أما فتح قيسارية من بلاد الروم سنة ٦٧٥هـ ، فقد وصفها محيي الدين بن عبدالظاهر وصفا دقيقاً ، حيث أشار إلى مسير الجيوش الإسلامية ، نحو الفتح ورحيلهم من المدينة ، مشيراً إلى صعوبات الطريق ، والظروف القاسية التي مرّوا بها ، إذ يقول : « ... ورحلوا من حلب في يوم الخميس ثاني ذي القعدة جرائد على الأمر المعهود ، قد حققوا كل شيء حتى البنود والعمود ، فسرنا في جبال نشتهي بها سلوك الأرض وأودية تهلك الأشواط فيها ، إذا ملئت الفروج من الركض ، نزور

---

(١) صبح الأعشى ، ٧:٢٨٦ ، ٢٨٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ٧:٢٨٧ ، ٢٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دياراً ما نحبّ مغناها ولا نعرف أقصاها من أدناها ..» [1] .

وشدّ التتار القتال على المسلمين ، وضيّقوا عليهم المجال في المعركة : « ... ، واشتدت فرقة من العدو من جهة الميسرة معرّجين على السناجق الشريفة من خلفها ، منقلبين بصفوفهم على صفها ...» [2] كما يقول محيي الدين بن عبدالظاهر.

ولكن المسلمين قاتلوا بقوة وبسالة : «وقصدت ميمنة عسكرنا جماعة من المغل ذوي بأس شديد ، فقاتلهم المسلمون حتى ضجر الحديد من الحديد ...» [3] .

أما واقعة حمص سنة ٦٨٠هـ ، فقد ثبتت ميمنة المسلمين أمام العدو في بادئ الأمر ، ثم تجمعت وكسرت ميسرة الكفار ، وكانت معركة كغيرها من المعارك ، شديدة ، قوية ، وقد وصفها صاحب التحفة الملوكية قائلاً : « ... ، والتقى الجمعان بوطأة حمص قريباً من مشهد خالد بن الوليد ... ، فصدمت ميسرة العدو الميمنة الإسلامية ، فثبتت لصدمتهم وصبرت لحملتهم ، فتكردسوا عليها ، وضيقوا المجال لديها ، وزاحموا القلب ، فلم ينالوا منه قصداً ، ووجدوه قوياً مستعداً ، فجعلوا كلهم على الميسرة ، فولّت منكسرة ، وتبعوها حتى أفضوا إلى الخيام ، ووقعوا في السوقة والأغوام ، فأهلكوا منهم عدداً ، وغادروا منهم بددا ..» [4] .

ويربط محيي الدين بن عبدالظاهر هذا النصر ، بنصر المسلمين في وقعة بدر ، التي كانت نقطة تحول هامة للأمة الإسلامية آنذاك ، وما ذلك الربط إلاّ ليمجّد ابن عبدالظاهر من نصر المماليك في وقعة حمص ، قال محيي الدين : « ... وهي النعمة التي عاد بها عمر الإسلام فتياً، وكوكب سعده مضيئاً ، ويوم نصره

---

(١) صبح الأعشى ١٤٥:١٦٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ١٤٥:١٦٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ١٤٥:١٦٥ .

(٤) التحفة الملوكية : ١٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بدرياً ... »[1] .

ويؤكد الكاتب ابن عبدالظاهر عزة وعلوّ النصر الذي أعاد للإسلام قوته ومنعته ، ونشر السرور بين الناس : «ووصلت الأخبار السارة بذلك ، فعمّت بالتهاني الوجود ، وضربت البشاير في كل صوب ، وحلقت الملايكة حتى الأفق ...»[2] .

وهذا النصر ملحمة كست الإسلام ثوب الشرف والعز ، ونالت ثأرها من أعدائها ، لذا فيجب أن تدوّن في الكتب ، وتوزع صحف التهاني بها كما يقول ابن عبدالظاهر : « ... هذه الملاحم التي ولد بها الإسلام جديداً ، ولتقرب للسمع الشريف من هذه الوقايع بعيداً ، وقد علم الله والمسلمون أن العيان في هذه الواقعة ليس كالخبر ، ولعمر الله أنّ هذه النصرة ذكرى للبشر ، لأنه كفت الملة الإسلامية عظيماً ، وأخذ الله بها للأيمة والأمة ثأراً قديماً ، ومولانا أحق بأن يُسرّ بها سراء كل منير ، ويتقدم بتعبيرها ، فإنها أشرف ما يحبّر وأجل ما به يخبر ..»[3] .

ويؤكد كاتب آخر قوة هذا النصر وجلاله في كتاب تهنئة قائلاً : « ... ، وكتابنا هذا والنصر قد ضربت بشائره ، وحلق طائره وامتلأت القلوب سروراً وأولى الله الإسلام من تفضله علينا وعليهم خيراً كثيراً ...»[4] .

وفي سنة ٦٩١ توجّه السلطان الأشرف إلى قلعة الروم ، فحاصرها ونصب عليها المجانيق ، وقد حاول أهل القلعة وسكانها ، ولا سيّما التتار أن يذبوا

---

(١) تاريخ ابن الفرات م٧:٢٢٣ .

(٢) المصدر نفسه ، م٧:٢٢٥ .

(٣) المصدر نفسه ، م٧:٢٢٥ .

(٤) ذيل مرآة الزمان م٤:٩٥ ، ٩٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويدافعوا عنها ولكن دون جدوى ، فكان النصر للمسلمين وكان الفتح بإذن الله ، فكتبت البشائر والتهاني ، حيث أشار المولى الإمام شهاب الدين عبدالعزيز بن كمال الدين أحمد بن العجمي إلى هذا النصر العظيم قائلاً : « ... أذن الله بنصره وقضى أجل العدو الكافر بانتهاء حصره ولم تنته عين الشمس من سنتها إلا والسناجق * المنصورة قد جلا الغياهب ضوء أسنتها ، وأسفرت غرة الحاج وحمدت السيوف سراها إلى أرواحهم عند الصباح وما تلبثوا بها إلاّ يسيراً ، وكان يوماً على الكافرين عسيراً »[1] .

إنّ فتح قلعة الروم ودحر المشركين وحلفائهم كالتتار والأرمن وغيرهم ، هو نصر الانتصارات ، أعزّ الإسلام وأذل الكفر ، ورايات هذا النصر تخفق بالرماح والسهام ، وتطير عالية لتبشر كافة الأرجاء بهذا النبأ العظيم ، كما يقول شرف الدين القدسي في كتاب تهنئة بهذا الفتح : « ... والنصر قد خفقت بنوده ، وصدقت وعوده وسار بمخلقات البشاير في كل قطر بريده ، والأعلام الشريفة السلطانية قد امتطت من قلعة الروم صهوة لم تذل لراكب ، وخلت من قبتها وقلتها بين الذروة والغارب وأراقت أسنتها من دمايهم ما ترك الفرات لا يحل لشارب ومد الإيمان بها أطنابه وأعجلت السيوف المنصورة الشرك أن يضم للرحلة أثوابه واستقرت بها قدم الإسلام باقية إلى الأبد ..»[2] .

إنّ هذا الفتح امتداد لفتوحات المسلمين السابقة ، وهو الذي جعل الدين عالياً مضيئاً ، منتشراً في كل الدروب إذ يقول القدسي : «هذه البشرى التي

---

* سناجق أو صناجق مفردها سنجق أو صنجق وهي لفظ تركي كان يطلق على الرمح ثم اصبح يطلق على الراية التي تربط به (صبح ، ج ٥:٤٥٨ .

(١) تذكرة النبيه م١:١٥٢ .

(٢) ابن الفرات م٨:١٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أصبح الدين بها عالي المنار ، بادي الأنوار ، ضارباً مضارب دعوته على الاقطار ذاكراً بموالاة الفتوح أيام الصدر الأول من المهاجرين والأنصار ، وليشعها على رؤوس الأشهاد ويجعلها في صحف الفتوح السالفة بمنزلة المعنى في القرينة والمثل في الاستشهاد »[1] .

وقد أشاد كاتب آخر بهذا النصر الأغرّ حيث أشار إلى التتار في كتابه قائلاً : « ولما أذن الله بالفتح الذي أغلق على الأرمن والتتار أبواب الصواب والمنح ، الذي أضفى على أهل الإيمان من المجاهدين أثواب الثواب ، فتحت هذه القلعة بقوة الله ونصره ... »[2] .

وقد انتصر المسلمون على التتار في واقعة جديدة سنة ٦٩٤هـ حيث كتب القاضي جمال الدين محمد بن المكرم بن أبي الحسن بن أحمد الأنصاري كتاب تهنئة بذلك ، إذ يقول : « أدام الله نعمة المجلس الفلاني ، وأسمعه من أنباينا السارة ما يبهج الأيام ويسر الأنام ، ويشد أزر الإسلام ، ويدخل قلب كل مؤمن بسلام ، ويُطمع المسلمين في أقصى العراق ويونس التتار من دار الإسلام ، صدرت تتلو عليه من آيات ملكنا ما أعاد على الدنيا زينها ووجب على كل نفس أن توفها من الاستبشار دَيْنَها وتعينُ عليه حمد الله عز وجل »[3] .

وقد سبب النصر السرور والأمان لأهل السماء والأرض ، وعظمت شعائر الله به ، ومهما تحدث عنه الإنسان لا يُوفي حقه من الوصف والتبجيل والتعظيم ، هذا اليوم الذي رفع الإسلام عالياً ، ودحر التتار وأذلّهم وكسرهم ، هذا اليوم الذي

---

(١) ابن الفرات م٨:١٤١ .

(٢) المصدر نفسه ، م٨:١٣٨ .

(٣) تاريخ ابن الفرات م٨:١٩٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نشر الهناء في الثغور الإسلامية ليكون مباركاً عظيماً كما يقول ابن المكرم الأنصاري في كتابه : « ... وكان والحمد لله يوماً سُرّ به أهل السماء وأهل الأرض ، وعظمت شعاير الله به فشكره على العالم من الفرض ، فيا له من يوم استقبلناه بركوبنا المبارك وباكرناه وتاه هلاله في أوله على بدره ... ، ونعلم أن الواصف له مقصّر ، ولو تغالى ولأنشد هكذا هكذا ... ، هذه البشرى التي أنصفت في قسمتها وأوجبت على العالم شكر نعمتها لأنها أيّدت الإسلام وفتت في عضد التتار وأيأستهم من أنفسهم وملكهم كما يئس الكفار ، وأتسع هذا الهناء في الممالك الشامية والثغور الإسلامية ليكون عصمة للأولياء ووصمة على الأعداء وقامعاً لدراهم ... » [1] .

كما وصف الدواوداري سير واقعة الخزندار بين المسلمين والتتار سنة ٦٩٩هـ حيث التقى جنود الطرفين ، والتحم بينهما القتال والضرب اذ يقول : « فلما كان نهار الأربعا تاسع وعشرين ربيع الأول التقى الجيشان ، والتحم الضرب والطعان ، وذلك أن المسلمين ركبوا بعد صلاة الصبح من ذلك اليوم بالحدّ والحديد والجدّ الأكيد، ركضاً بالمقرعة والمهماز ، وعاد الأمر حقيقة لا مجاز .... » [2] .

وأكّد صاحب التحفة الملوكية قوة المسلمين في المعركة ، ونيتهم الأكيدة بتحقيق النصر ، حيث قاتلت ميسرة المسلمين بقوة شديدة - ولكن « حصل للمسلمين حصرٌ وأيّما حصر » [3] إذ يقول : « فلما التقى الجمعان ، واصطدم الجيشان حملت الميسرة المنصورة على ميمنة التتار فكشفتها ، ولولا قليل

---

(١) تاريخ ابن الفرات م٨:١٩٥ .

(٢) كنز الدرر ، ص ١٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لهزمتها ، وتكردست ميمنتهم على القلب ، فتضايق مجال الحرب ... » [١] .

وقد شدّ التتار القتال على المسلمين في هذه الواقعة ، حيث حولوا نصر المسلمين في بادىء الأمر إلى نصر لهم وهزيمة للمسلمين ، فقد ضيقوا الحرب على المسلمين بالضرب والطعن والعنف إذ يقول بيبرس المنصوري : « ... ، ولم يتمكن الجيش هنالك من الطعن والضرب ، فإن التتار من قدامهم ازدحموا ، والغلمان من ورائهم التحموا وجاءهم نوابل السهام كوابل الغمام ، فثنوا الأعنّة وطرحوا الأسنة ولفظوا كل درع وجُنّة ..... » [٢] .

استهلّ علاء الدين كتابه بالتحميد والشكر لله سبحانه وتعالى على النصر الذي منّه ومنحه للأمة الإسلامية ، ووهب الأمة أبطالاً يذودون حق الذود عن حمى أوطانهم ، قال : « الحمد لله الذي أيّد الدين المحمدي بناصره ، وحمى حِماه بمن مضى هو وسلفه بأداء فرض الجهاد في أول الزمان وآخره ، وجعل من الذرية المنصورية من يجاهد في الله حق جهاده ويسهر في سبيل الله فمنع طرف السيف أن يغض في أغماده ... » [٣] .

ثم يعظّم علاءالدين نصر المسلمين في هذه الواقعة التي حفظت أملاك الدولة، وكان لها الأثر العظيم في الآفاق ، وربط الكاتب بين بطل المعركة الناصر وأبيه المنصور ، ليؤكد على أن الانتصارات متجددة ومستمرة وأن القادة يرثون القوة والشجاعة عن آبائهم ، ليدافعوا عن كلمة الإسلام ، فالعقيدة واحدة ، والهدف واحد، قال ابن عبدالظاهر : « ... وبعد فإن الوقائع التي عظمت آثارها في الآفاق ،

---

(١) التحفة الملوكية ، ص ١٥٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٥٧ .

(٣) السلوك ، ١٠٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحفظت بها دماء المسلمين من أن تراق ، وبقي بها الملك والممالك ، وأشرق بها سواد الخطب الحالك ، وسطرها الله تعالى في صحائف مولانا السلطان الملك الناصر ، ... فأورثه به ظفراً مخلداً لا يفنى وإن طال المدار والأمد ، واشتبه في ثباته ووثباته بها أباه رضي الله عنه والشبل في المجر مثل الأسد ... » [1] .

ثم يشير علاءالدين إلى أثر هذا النصر على الأمة الإسلامية الذي جمعها بعد الفرقة وأعاد البسمة بعد العبوس ، قال : « ... واستقر بها الملك في مهاد السكون بعد القلق ، وتبذلت بها الملة الإسلامية الأمن بعد الفرَق ، وأضحى بها وجه الإسلام سافراً بعد تقطيبه ، وطلع بها بدر السرور كاملاً بعد مغيبه ... » [2] .

وقد كان نصر المسلمين في هذه الواقعة ثاراً من المغول لما فعلوه بأهل الإسلام، الذين مكّن الله لهم المُدافع والمُناضل عنهم ، قال « ... ويذيع أنبَاء هذه النصرة في الأقطار ، ويتحقق أهل الإسلام أنّ لها ملكاً يناضل عن دين الله بالسُّمر الطُّوال والبيض القصار ، وسلطاناً ما أغمض سيفه في جفنه إلا ليستجم لأخذ الثأر ... » [3] .

ثيم يشير علاءالدين بن عبدالظاهر إلى سير المعركة ، حيث التقى الفريقان بقوة عظيمة وحمي وطيس المعركة واشتدّ ، قائلاً : « والتقى الفريقان بعزائم لم يينسها في الحرب نكول ولاتقصير ... ، وحمي الوطيس ، وحمل في يوم السبت الخميس على الخميس ، ودارت رحا الحرب الزبون ، وغتت السيوف بشرب الكماة كأس المنون ... » [4] .

---

(١) السلوك ، ١٠٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ١٠٢٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ١٠٢٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ١٠٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحاول التتار دحر ميمنة المسلمين ، إلا أن قوة المسلمين حالت دون ذلك ، إذ يقول القاضي علاءالدين : « وقامت الحرب على ساق ، والتفت الساق بالساق ... ، وأتى العدوّ جملة واحدة ، وحمل حملة أمست بالنفوس جايدة ، ونكب على الميسرة وقصد الميمنة والقلب ، وهاله جمع الإسلام ، ... واستمرت المناضلة تمتد بين الفريقين وتنتشر ... »[١] .

ثم يشير الكاتب إلى يوم النصر ، نصر المسلمين في المعركة ، يوم الأحد ، حيث وقع التتار في ضيق وحصر ، وخابت آمالهم وظنونهم ، وتألق الإسلام في هذا اليوم ، وازدادت قوته ، إذ يقول علاءالدين : « ... ودخلت ليلة الأحد وهم في حصرهم ، وقد أوقعهم الله في حبائل مكرهم ، وأراهم من الحصر والضيق ما لا رأوه مدة عمرهم ... وأصبح الإسلام يوم الأحد في قوته المنيعة ، وأرواح العدا في أجسادهم وديعة ... »[٢] .

لقد خفقت رايات نصر المسلمين في هذه الموقعة ، التي صدق الله وعده بتحقيق نصرها للمسلمين ، وحلقت بها طيور العز والشرف : « ما انقضى ظهر يوم الأحد إلاّ والنصر قد خفقت بنوده ، والحق سبحانه وتعالى قد صدقت وعوده ، وطائر الظفر قد رفرف بجناحه وطار باليمن والسرور ونسيم الريح قد تحملت رسالة التأييد ، ... ولله الحمد قد زادت للإسلام قوة وتمكيناً ... »[٣] .

ويتجلّى عن هذا النصر الأثر النفسي للناس آنذاك ، فقد سُرّت الأنام به وتألقت بعلوّه ورفعته ، قال علاءالدين : « والأقاليم قد تاهت بسلطانها بهجة وسروراً ، وهامُ الجوزاء تود لو كانت منبراً وسريراً ، والرعايا تقول هذا الملك

---

(١) السلوك ، ١٠٣١ ، ١٠٣٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ١٠٣٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ١٠٣٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذي حمى الله بعزائمه الديار ، وأدى العِدى إلى دار البوار ... » [١] .

ويعظّم الكتّاب النصر ، ويذكرون فضل الله عزّ وجلّ وقدرته على ذل وهوان المغول ، ثم يرسمون مشاعر البهجة والفرح التي تشفي الصدور وتعم الآفاق ، إذ يقول بهاءالدين أبي الحسن علي بن سوادة الحلبي [٢] : (وأذن الله تعالى بالنصر والاقتدار ، ومنّ على المسلمين بشفاء الصدور والأخذ بالثأر ، وانتشرت البشرى في الآفاق ، وارتفع لها في الأكوان رواق ، وأي رواق وملأت الوجود سروراً وأفراحاً وطلعت في نهار النصر شمساً وفي ليل الدجى مصباحاً ، وانشرحت الصدور بحصول المقصود ، وتلا لسان التعجب ، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ...) [٣] .

وقد تغنى شهاب الدين محمود الحلبي بهذا النصر أيضاً ، حيث عدّه النور والضوء اللذّين أخمدا نيران الكفر ، وهو النصر الذي زلزل الجبال ، وهو النصر الذي حفظ البلاد والثغور ، حيث يقول : «وبشّره بالفتح الذي أعاد الله به الأمة خلقاً جديداً ، والنصر الذي أنزل فيه من الملائكة أنصاراً للملّة وجنوداً ، والظفر الذي أطفأ الله به من نار الكفر ما لم يكن يرهب خمودا ، والغزوة التي زلزل الله بها جبال أهل الشرك وقد تدفقت على الأرض أمثال البحار عدداً وعديداً ... ، هذه البشرى التي تُنبئ عن الفتح العظيم والفضل العميم ، والنصرة التي حفظ الله بها على الإسلام البلاد والثغور والأموال والحريم ...» [٤] .

(١) السلوك ، ١٠٢٤ .

(٢) هو علي بن علي بن محمد بن أبي سوادة ، بهاء الدين ، كاتب السر بحلب ، ت٧٢٤هـ ، الدرر الكامنة ١٥٩:٣٥ .

(٣) تذكرة النبيه ج١:٢٤٩ .

(٤) النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق د. محمد محمد أمين وآخر ، مركز تحقيق التراث ١٩٩٢ ، ج ١٦١:٥ ، ١٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأدوات الحربية للمعركة والسِّلاح

لقد ظهرت معظم أنواع السلاح في كتابات أدباء هذا العصر ، فقد ذكروا أدوات ووسائل حربية كثيرة في وصف وتتبع المعارك والوقعات بين المسلمين والعدو التتار .

وقد حثَّ الأدباء السلاطين [1] والنواب في كتاباتهم على الاهتمام بالأدوات الحربية كما فعل المقر الشهابي بن فضل الله في نسخة مرسوم شريف بنيابة قلعة دمشق إذ يُوصي بالاهتمام بالسلاح الحربي والمحافظة عليه قائلاً : « والدعاء الصالح في تغليسها ، وصيانة ما فيها من حواصل ، أو يصل اليها من واصل ، وما فيها من ذخائر ، وما في خزائنها العالية من مدد البحر الزاخر ، .. ، وخزائن السلاح المنصورة وما يُستكثر فيها من عدد ، وما يُستغزر من مدد ، والمجانيق التي تخطر منها كل خطّارة كالفنيق ، وتصعد مرماها إلى السماء كأنما تخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ، شائلة عقاربها ، أفلة بالأعمار كواكبها ، والحدوج * والقِسي والرايات وغير ذلك من سلاح ، أو دروع تردُّ السهام على اعقابها وتحني قامات العوالي وتضيّق صدور الصّفاح ..... » [2] .

وقد أوصى علي فخر الدين بن لقمان بالاهتمام بالمراكب الحربية البحرية ، حيث يقول : « ولا تخل الثغور من اهتمام بأمرها .. إلى أن يقول :« وكذلك أمر الأسطول الذي تزجي خيله كالأهلة وركائبه سابقة ، بغير سائق مستقلة ، وهو أخو الجيش السُّليماني ، فإن ذاك غدت الرياح له حاملة ، وهذا تكفلت بحمله المياه

---

(١) انظر كتاب العسكرية الاسلامية للدكتور احمد عدوان حول اهتمام السلاطين بالسلاح ، ص ٥٣ .

* الحدوج : حدج بمعنى المركب أو الهودج – حدجه رمال ، ولعلّ المراد بالحدوج نوع من السلاح يرمي قذائف صغيرة كالحبات .

(٢) صبح الأعشى ، ج ١٢ / ٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السائلة ، وإذا لحظها جارية في البحر كانت كالأعلام ... » [١] .

إنّ للسلاح دوراً كبيراً في الفتوحات والمعارك ، ولا سيما المنجنيق ، هذه الآلة الحربية القوية في أدائها ، وقد أشار إليها أحد الكتاب قائلاً :« .. ونصبنا عليها عدة مجانيق تنقض حجارتها . انقضاض النسور وتقتنص الأرواح من الاجسام وإن ضرب بينها وبينهم بسور وتفترس ابراجها بصقور صخور افتراس الأسد الهصور ..... » [٢] .

وقد وصف الكتاب معظم أنواع الأدوات الحربية ووسائلها ، ومنها الخيول حيث أطالوا في الحديث عن قوتها ، وأنواعها ، وأدائها في الحروب .

والخيل أداة حربية مهمة آنذاك ، فهي وسيلة التنقل ، وسيلة تتحمل الصعاب حتى يصل المحارب إلى هدفه كما يقول أحد الكتاب : « .... وما زلنا نصل السرى بالسير ونرسل الأعنّة إلى نحوها فتمد الجياد أعناقها اليها مداً ينقطع بين قوتها وقوته السير ... » [٣] .

وهذه الخيول إن قصدت المعارك تُبلي بلاءً حسناً كما يقول الحلبي ، « ... ومن أبلق ظهره جَرْمٌ وجريه ضرْمٌ ، إن قصد غاية فوجود الفضاء بينه وبينها عدم ، وفعله ما تريد الكفُّ والقدم ... » [٤] .

ويؤكد الحلبي المعنى نفسه مرة أخرى قائلاً : « ..... ، وإن جُنب إلى حربٍ لم يزورّ من وقع القنا بلُبانه ولم يشكُ لو علم الكلام بلسانه ولم يرَ دون بلوغ الغاية وهي غرض راكبه ثانياً من عِنانَه » [٥] .

---

(١) السلوك ، ج ١ ، ق ٢ /٤٥٧ .

(٢) ابن الفرات ، م ١٣٨/٨ .

(٣) المصدر نفسه ، م ١٣٨/٨ .

(٤) حسن التوسل ، ص ٣٤٦ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٣٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد وصف الكتاب الخيول كثيراً في كتاباتهم ، ويبدو لي أن كثرة الكتابة عن الخيول ووصفها وذكر أنواعها ، ما هو إلا صدى للظروف السياسية آنذاك ، حيث الجهاد والقتال ، وقد كانت الخيول وسيلة وأداة حربية آنذاك كما يؤكد الحلبي « ... فترقى الملوك إلى رتب العزّ من ظهورها وأعدّها لخطبة الجنان إذ الجهاد عليها من أنفس مهورها ... »[1] .

ومن هنا نجد الكتاب يمدحون الخيول ويصفونها ذاكرين صفاتها الجسدية ، وقوتها ، وشجاعتها في أثناء المعارك ، ومن الذين وصفوا الخيول الكاتب تاج الدين عبدالباقي بن عبدالمجيد اليماني * إذ يقول : « .... ؛ ذوات ضبح ، وموريات قدح ؛ تكبو الريحُ في غاياتها ، ويُقر البرقُ بمعجزاتها ، مداخَلة الخَلق رحبة اللّبَان، مستغنية عن الهمز بتحريك العنان ، تقارب من بين قَطَاها ومطاها ، وتباعد ما بين قَذَالها وصلاها ، سما عنقها وأطرق جبينها ، ... »[2] .

ومن الأدوات الحربية التي ركز عليها الكتاب أداة السيف ، هذا السيف الذي يجلب النصر ، ويمهّد الفتوحات حيث يقول الحلبي : « وقلّدته مهابتنا سيفاً تلمعُ مخايل النصر من غمده وتشرق جواهر الفتح في فِرنْده وإذا سابق الأجل إلى قنص النفوس ، عرف الأجل قدره عند حده ، ومتى حرّكه على ملك من مُلوك العدى وهت عزائمه ، وعجز جناح جيشه أن تنهض به قوادمه وعلم أنه سيفنا الذي على عاتق الملك الأغرّ نجاده وفي يد جبار السماوات قائمه ... »[3] .

---

(١) حسن التوسل ، ٢٤٧ .

* ولد في مكة سنة ٦٨٠هـ كان إماماً فاضلاً أديباً بليغاً ، مات في القاهرة ٧٤٣هـ ، الوفيات ٤٣٧/١ .

(٢) نهاية الأرب ، ج ٧٦/١٠ .

(٣) حسن التوسل ، ٢٤٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا السيف قوي جبار يقطع ويسفك بقوة كما يقول تاج الدين بن عبدالمجيد اليماني :« .... ؛ إذا توغل في هامة الجبار سار وأوجف ، ومتى استوطن جثة الجرم أوهى مبانيها وأشرف ... » [١] .

أمّا الدرع ، أحد الأدوات الحربية آنذاك ، فقد وصفه اليماني قائلاً :« .. خليق بمثله أن يُفاض عليه مثل هذه الفضفاضة وأن يبلغ بها من نيل الأعداء أمانيه وأغراضه ؛ وأن يتخذها جُنة تقيه سوء المزاريق في حومة القتال ، وأن يتدرعها ، فتُخال عليه غديراً صافحت صفحته يدُ الشمال ؛ إن نُشرت على الجسد غطت الكعبين ..... » [٢] .

وقد وصف الكاتب القوس قائلاً : « ... مشفوعة بقوس طلعت هلالاً في سماء المعارك ، ومجرة تنقض منها نجوم المهالك ، ووكراً تسرح منه نسور المعاطب ، وأمّا تفرق أولادها لاحراز الغرض من كل جانب ، تصرعُ بسهامها كل رامح ونابل ... » [٣] .

وقد وصف بعض الكُتاب الأدوات الحربية مجتمعة في صورة أدبية واحدة ، بحيث لم يستقل بالحديث عن أداة واحدة فقط أمثال علاء الدين بن عبدالظاهر الذي يتحدث عن معركة مرج الصُفر واصفاً أداء السلاح فيها قائلاً : « هذا والسيوف قد فارقت الأغماد ، وأقسمت أنها لا تقر إلا في الرؤوس ، والأسنة قد أشرعت وآلت أنها لا يُروى ظمؤها إلا من دماء النفوس ، والسهام قد التزمت أنها لا تتخذ كنائنها إلا من النحور ، ولا تتعوض عن حنايا القسي ، إلا بحنايا الأضالع ،

---

(١) نهاية الأرب ، ج ٦ / ٢٤٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٦ / ٢٤٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٦ / ٢٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو لترفعها لا تحل إلا في الصدور ، والدروع قد لزمت الأبطال قائلة : لا أفارق الأبدان حتى تتلى سورة الفتح المبين ، والجياد حرمت وطء الأرض وقالت لفرسانها لا أطأ إلا جثث القتلى ورؤوس الملحدين ، فلا ترى إلا بحراً من حديد ، ولا نشاهد إلا لمع أسنة أو بروق سيوف تصيد الصيد ... » [١] .

ويذكر محيي الدين بن عبدالظاهر في كتابة - عهد ابن الظاهر بيبرس كثيراً من الأدوات الحربية حيث أشار إلى امتطاء المسلمين خيولهم في المعارك ، والقتال بالرماح التي يلمع بريقها كالشمس ، وقد جرد المسلمون السيوف التي أشعلت النيران إذ يقول : « ... ؛ واستنفذنا الساعات في امتطاء المضمر الشموس وادّراع محكم الدُلاص التي كأنها وميض برقٍ أو شعاع شموس ، وتجريد المرهفات التي جَفت لحاظها الأجفان وجرت فكالمياه وأضرمت فالكنيران ، وتفويق السهام التي غَدَت قسيُّها مرابعاً نبالها بان ، واعتقال السمهرية التي تقرع الأعداء سنها ندما كلما قرعت هي السُنان ... » [٢] .

وقد جمع شهاب الدين محمود الحلبي معظم الأدوات والوسائل الحربية في خطبة أعدّها لرامي نشّاب إذ يقول : « الحمدُ لله الذي جعل سهم الجهاد إلى مقاتل أعداء دينه مسدداً ، وحُكم الجلاد بإصابة الغرض في سبيله مؤيداً ، وسيف الاجتهاد في نكاية من كفر به وبرسوله على الأمد مجرداً ، وركن الإيمان بإعداد القوة .. على كرُ الجديدين مجدداً ، الذي أعاد رداء الجهاد في مواطن الصبر بالنصر معلماً وأباد أهل الإلحاد بأن جعل لحُماة دينه في أرواحهم أقساماً وفي مقاتلهم أسهما ، وأزال بأيدي القسيِّ من معاقل أهل الكفر حكم كماتهم ... » [٣] .

(١) السلوك ، ج ١ ، ق ٢ / ١٠٣٠ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ١٠/١٦٨ .

(٣) حسن التوسل ، ٣٥١ ، انظر نهاية الأرب ، ج ٦ / ٢٣٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صورة الجيش المسلم

صوّر الكُتّاب قوة وأنفة الجيش المسلم ، هذا الجيشُ الذي يسير كالأوطاد الشامخة ، تخيف الأعداء من قوتها ، كما يقول علاء الدين بن عبدالظاهر :« ... ؛ والجيوش المنصورة قد أرهفت حدّ سيوفها ، وأشرعت أسنة حتوفها ، وهي تسير كالجبال وتبعث كالصدى ما يرهب من طيف الخيال » [١] .

ويشير الكاتب نفسه إلى عزيمة الجيوش الاسلامية ، الذين يحاصرون الأعداء كالسوار إذ يقول « وحصرتهم العساكر الإسلامية بعزائم كالشهاب أو النار ، ودارت عليهم كالسُوار والسوار ، وصيّرتهم بقدرة الله في ربقة الإسار ، وقاتلتهم الجيوش المنصورة غير محتمية بقرى محصنة ولا من وراء جدار ... » [٢] .

وهذه الجيوش تذل بلاد التتار إذا دخلتها وتغير أحوالها وأمورها ، حيث يقول محمود شهاب الدين الحلبي : « وما سطرنا هذه المكاتبة إلا وجيوشنا المنصورة قد وطئت عُقر بلادهم فأذلتها وأذالتها ، وغيرت أحوالها وحالتها ، وقاسمتهم شر قسمة فلها منها الحصون والمصون والجنات الوارفة الغصون ، ولهم منها الخراب والتباب ... » [٣] .

وجيوش المسلمين تقتل وتفتك بالعدوّ وتُسيل دماءهم التي تروي الأراضي المقفرة ، وتهزم التتار على الرغم من أعدادهم الضخمة الكثيرة حيث يقول الحلبي: « ..... ؛ وهؤلاء هم جيوشنا الذين دوخوا البلاد ، وأذلوا أهل العناد وطهروا السواحل وأجروا في كل موطن من أنهار الدماء ما يُروى البلد الماحل ، وهزموا

---

(١) السلوك ، ج ١ ، ق ١٠٢٩/١٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ / ١٠٣٢ .

(٣) صبح الاعشى ، ج ٧ / ٣٤٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جيوش التتار وهم في أعداد الكواكب .... » [١] .

ويؤكد شهاب الدين محمود الحلبي قوة وشجاعة الجيش المسلم ، الذي يبدد جماعة التتار حتى يُحيلهم إلى رماد يطير والرياح حيث يقول : « فصدمتهم جيوشنا المنصورة صدمة بددت شملهم وعلمت الطير أكلهم وحصرتهم في الفضاء وطالبت أرواحهم الكافرة بدَيْن دينها ، فأسرفت في الاقتضاء وحصدت منهم سيوفنا المنصورة ما يخرجُ عن وصف الواصف ومزقت بقيتهم في الفلوات فكانوا كرماد اشتدت به الريحُ في يوم عاصف * ..... » [٢] .

هذا الجيش المقدام القوي ، يصارع البحار ويصطدم والجبال ، في سبيل اعلاء كلمة الله إذ يقول الحلبي : « وليعلم أنّ جيوشنا في المسير إليه متى قصد عدواً سابقت خيولها خيالها ، وجازت جيادها ظلالها وأنفت سنابكها أن تجعل غير جماجم الأعداء نعالها ، وها هي قد تقدمت وأقدمت ونهضت لإنجاده ، فلو سامها أن تخوض البحار في سبيل الله لخاضت أو تصدم الجبال لصدمت ... » [٣] .

والجيش الإسلامي يبيع أغلى ما يملك في سبيل الله ، واثقاً من النصر مقداماً قوياً ، هذا ما أكده الحلبي في نص أخر حيث يقول : « ... فتلقتهم الجيوش المنصورة بنفوس قد بايعت الله على لقاء عدو الله وعدوها ، ووثقت بما أعدّ الله لها من الجزاء رواحها في سبيله وغدوها ... » [٤] .

---

(١) صبح الأعشى ، ج ٧ /٣٤٩-٣٥٠ .

* إبراهيم ، الآية ١٨ .

(٢) حسن التوسل / ٢٢٧ .

(٣) حسن التوسل ٢٧٨ .

(٤) نهاية الأرب ، ج ٥ /١٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنّ الجيش الإسلامي جيش قوة وبأس ، يشهد الغزوات والمعارك ويُبلي فيها بلاءً حسناً كما يقول محيي الدين بن عبدالظاهر : « ... وجيوش الإسلام وكُماته وأمراؤه وحُماته ، منهم من قد علمت قدم هجره ، وعظم نصره ، وشدة باس * وقوة مِراس ، وما منهم إلا من شهد الفتوحات والحروب وأحسن في المحاماة عن الدين الدُّؤوب ، وهم بقايا الدُّول .. » [١] .

ويمتاز هذا الجيش بالثبات أثناء الصدام بينه وبين العدوّ ، كما يمتاز بالتربص والرباط والمصابرة ، إذ يقول محيي الدين بن عبدالظاهر : « .. هذا وعساكر المسلمين مستوطنة في مواطنها ، جاذية عِقبانها في وكور ظباها ، رابضة أسادها في غيل أقناها ... » [٢] .

وهذا الجيش صبور على الشدة والمصاعب في أثناء المعارك ، يتحمل الصعاب والمشاق : « ..... ؛ فسلك طريقاً من الأوعار يبسا ، وسلك من قُلل الجبال في هضاب كأن كلاً منها ألفٌ حملت من الأنجم قبساً فقاسى العالم في هذا اليوم من الشدة ما لا يدخل في قياس ، وكادوا يهلكون لولا أن الله عز وجل تدارك الناس فتسابقوا ولكن على مثل حد السيف ، وتسللوا ولكن سلّ حوافر الخيل كيف وهبطوا من جبال يستصعبها كل شيء حتى طارق الطيف ، يستصعب الحجر المحلّق من شاهق وقوعه في عقابها ، ويستهول النجم الثاقب ترفع شعابها ... » [٣] كما قال محيي الدين بن عبدالظاهر .

---

* هكذا وردت مخففة الهمز في النص .

(١) صبح الأعشى ، ج ١٠/١٢٣ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ٧ / ٣٨٧ .

(٣) صبح الأعشى ، ج ١٤/١٨٥-١٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجيش المسلمين جيش يمتاز بالعدد الكبير الضخم ، وهذا الجيش الذي يمدُه الله بالملائكة إذ يقول محمود شهاب الدين الحلبي : « ... ؛ والجيوش كاثرت النجوم أعدادها وسايرتها للهجوم على أعداء الله من ملائكته الكرام إمدادها »[١] .

وهذا الجيش المسلم القوي يقاتل الأعداء مع قائده ، ويدعو له بالبقاء ، هذا الجيش منقاد مطيع لقائده يحبه ويتمنى له حيث يقول محيي الدين بن عبدالظاهر: « ... وأبادت بمرهفه البتار جمع التتار الطغام ، واستخدمت لطاعته جيشين ، جيش نهار بكرّ منه مواليه على أعدائه بسابق خيله ومرهف حسامه ، وجيش ليل تبسط أولياء دولته أكفهم للدعاء ببقائه في جنح ظلامه »[٢] .

وهذا الجيش قويٌ ، عظيمٌ ليس في الحروب فحسب ، بل في حالات السلم ، حيث أشار إلى ذلك صاحب الروض الزاهر إذ يقول : « ... ؛ فبهروا العيون بومضات الحديد ، وتهادت الخيول في أحسن حللها تهادياً يغيظ الكفار ، ويستوقف النواظر وتحير الأفكار ودخلوا في الطعن بالرماح ، وأخذ الحلقة ، ورمي النشاب .. »[٣] .

صورة البطل المسلم

لقد كانت البطولة والفروسية والشجاعة ، سمات أساسية متأصلة في الشخصيات الهامة ، إبّان هذا العصر ، هذا العصر الذي أنجب الأبطال ، هذا

---

(١) حسن التوسل / ٣٣٣ .

(٢) نهاية الأدب ، ج ٨ / ١٦٠ .

(٣) الروض الزاهر / ٤٢٤ ' ذكر صاحب الروض هذا الحديث عندما استعد السلطان الظاهر وعساكره للعب القبق سنة ٦٧٢هـ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العصر الذي « فاض بروح البطولة وتميز بعدد ضخم من الأبطال [1] » كما يرى الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور .

وأرى أن الدكتور سعيد لا يُبالغ في هذا الكلام إطلاقاً ، فقد اجتمع على العالم الإسلامي في هذا العصر ، خطران سياسيان : أولهما خطر الغزو الصليبي وثانيهما الخطر المغولي ، أضف إلى ذلك الفتن الداخلية ، إذ لاقى العالم الإسلامي أهوالاً ودماراً وسفك دماء ، نتيجة العدوان الصليبي ، كل هذا ساعد على تحريك المشاعر إلى الجهاد في سبيل الله ، وصد العدوان ، وميلاد الأبطال أمثال قطز ، والظاهر بيبرس ، والمنصور بن قلاوون ، والناصر محمد بن قلاوون ، فالظروف السياسية السائدة آنذاك كانت عاملاً على امتياز هذا العصر بروح البطولة والعدد الضخم من الأبطال .

لقد اعتنى الكتاب ، وكتاب التراجم والسير ، والرحلات في الحديث عن السلاطين والحكام الأبطال ، ورسموا صوراً جليلة لهؤلاء الأبطال .

هؤلاء الأبطال الذين امتازوا بالحنكة واقامة فرض الجهاد ، حيث يقول محيي الدين بن عبد الظاهر مادحاً الظاهر بيبرس : « ... فأقام السلطان الظاهر بين خشداشيته كالشمس بين الكواكب وكالأسد بين الأشبال الخادرة ، يتدرب في غزو الكفار ، ويديم الجهاد آناء الليل وأطراف النهار ..... » [2] .

ويؤكد ابن شدّاد على مواظبة الظاهر بيبرس على الجهاد في سبيل الله ، إذ يقول : " ... ألزم على نفسه من المواظبة على الجهاد في سبيل الله ابتغاء مرضاته، والسُكنى بجواره في بحبوحة جناته ، واجتهاداً في إقامة منار الاسلام وإعلان

(١) د . سعيد عبد الفتاح عاشور ، الظاهر بيبرس ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، المؤسسة المصرية للتاليف والطباعة والترجمة ، ص ٧ .

(٢) الروض الزاهر /٤٧ ، انظر ايضاً النور اللائح في الدر الصادح ، ص ٦٣ ، حول البطل المسلم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كلمته بالإعلان والإعلام .... » [١] .

ويؤكد د . عفيف رزق أن الظاهر بيبرس بطلٌ مسلمٌ يتمتع بأفق استراتيجي بعيد المدى وقد اكتسب " عن جدارة لقب مؤسس دولة المماليك ، وقاهر المغول والصليبيين » .[٢]

ويشير ابن شداد إلى حبّ البطل لإقامة فرض الجهاد ، وبذل نفسه وروحه في القتال من أجل اعلاء كلمة الله حيث يقول عن الظاهر بيبرس : " لما علم أن الجهاد من قواعد الاسلام الخمس ، وأن الظفر بالأعداء لا يُنال إلا بشقّ النفس ، وأن الله تعالى فرض الجهاد على عباده ، وأجزل الأجر لمن بذل فيه غاية جهده واجتهاده ، وأحكم سبب الإيمان باتصال سببه ، وجعله احد أركان الدين الذي لا يتم الاسلام إلا به ، ورغّب فيه كل الترغيب ، وخصّ المرابطين فيه بأوفى نصيب ، وانزل في وصفه آيات بينات وأوضح من مفصّل تفضيله جملاً كافيات ، وحرّض عليه عباده المخلصين ووعدهم عليه النصر لقوله تعالى: ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ بذل نفسه النفسية في مواطن القتال ، وسبق الأقران إلى النزال ، وصبرت عارفة لذلك نفسٌ حرة وأثبت في مستنقع الموت رجله متيقناً من الله النصرة ... » [٣] .

والقائد المسلم قد صدّع ممالك الأعداء ، وضعضع ملكهم حيث يؤكد شهاب الدين محمود الحلبي لقاء البطل القوي لأعدائه دون خوف أو وجل قائلاً : « ... ؛ وزلزل ممالك أعدائه بما نبعث من سرايا رعبه إليها ، وثبت به أركان الأرض

---

(١) تاريخ الملك الظاهر ، ص ٣٠ .

(٢) الظاهر بيبرس ، عفيف رزق ، مجلة الفكر الاستراتيجي ، ع ٢، س ١ ،١٩٨٢ ، معهد الإنماء العربي ، ص ٢٩٧ ، ٣٠٢ .

(٣) ابن شداد ، ص ٣١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التي ستحتوي ملكه في طرفيها ، وضعضع بسلطانه قواعد ملوك الكفر .. » [١] .

لقد امتاز الظاهر بيبرس ، البطل المسلم ، بكثرة فتوحاته وغزواته كما يشير صاحب بدائع الزهور : « ..... وكان كثير الغزوات مشهوراً بالفروسية ، وله إقدام في الحرب ، وكان كثير الأسفار في الصيف والشتاء ، وكان يلقب بأبي الفتوحات لكثرة فتوحاته للبلاد والثغور ... » [٢] .

ويشير ابن شداد إلى همة وعزيمة الظاهر بيبرس ، تلك العزيمة التي تنهل السيوف منها المضاء والقوة إذ يقول : « وتلك عزيمة تكتسب السيوف مضاءها ، وتستفيد الرماح الشواجرحكمها وقضاءها » [٣] .

ويؤكد كاتب آخر قوة وعزيمة الظاهر بيبرس قائلاً : « ... ، وفتحت للفتوحات الإسلامية أبواباً ، وهزمت من التتار والفرنج العدوين ، ورابطت من الملح الأجاج ، والعذب الفرات بالبرين والبحرين » [٤] .

وقد أطنب الكتاب في الحديث عن همة البطل وقوته وعزيمته ، البطل الذي سهّل الصعاب بفتكاته القوية وهمته الأبية حيث يقول الشريف شهاب الدين : « ... فبيّن مقاصده هانت الخطوب وإن كانت فتكاته في الحروب كم هالت ، وهممه في السلم قد جلّت ويوم الروع كم جالت ، وعزائمه كم غارت فأغارت وللمعتدين كم غالت ... » [٥] .

---

(١) صبح الأعشى ، ج ١٠/٥٣ .

(٢) ابن اياس الحنفي ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ج ١ ، ق١ ، ٢٤١ .

(٣) تاريخ الملك الظاهر ، ص ٣١٨ .

(٤) العيني ، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، تحقيق د. محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ ، ج ١:٣٩٩ .

(٥) صبح الأعشى ، ج١٣:١٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويفخر المطّلع على الآثار الأدبية لهذه الحقبة الزمنية ، وعندما يرى البطولة بمعناها الحقيقي ، البطولة التي استحقت كل كلمة كتبت عنها ، ولا سيما بطولة الشجعان ، الفرسان ، أمثال الظاهر بيبرس الذي أرسل كتاباً إلى الأمراء بمصر يؤكد فيه على استعداده التام للجهاد والحروب إذ يقول : « ... وأنا والله لا أبيت إلا وخيلي مشدودة ، وأنا لابس قماشي حتى المهماز ... »[١] .

وقد كتب إليهم كتاباً آخر أكد فيه على ملازمته لجنوده ، يباشر الحروب معهم دون راحة أو سكينة إذ يقول : « إنا بحمد الله تعالى ما تخصصنا عنكم براحة ولا دعة ، ولا أنتم في ضيق ونحن في سعة ، ما منّا إلا من هو مباشر الحروب ، الليل والنهار ، ..... ، وقد تساوينا في هذه الأمور ، وما ثم ما تضيق به الصدور ...»[٢] .

وكان البطل القائد المسلم محباً للفقراء ، يزورهم ويقدّم لهم المعونات والخدمات حيث يقول ابن شداد مشيراً إلى الظاهر بيبرس : « لما علم تغمده الله برحمته أن محبّة الفقراء عروة لا يُخشى انفصامها وركن جُعل إليه ملاذ النفوس واعتصامها ، وأن أفضل ما يتقرب به المتقرب إلى الله العظيم تعظيم أوليائه ، وتوفير حظهم من الإكرام الذي أوجبه على ألسنة أنبيائه ، ثابر على الوفود عليهم والتردّد إليهم والقيام بحقوقهم ... »[٣] .

أما البطل المسلم المنصور سيف الدين قلاوون ، فهو قوي العزيمة والهمة كما يقول تاج الدين أحمد بن الأثير * : « ... ، ويقوى به قوى العزائم

---

(١) الروض الزاهر : ٢٩٥ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٢٦ .

(٣) تاريخ الملك الظاهر : ٢٧١ .

* هو شمس الدين بن سعيد بن محمد بن سعيد الكاتب ، بارعاً ، فاضلاً ، باشر الإنشاء بدمشق ثم بمصر للظاهر بيبرس ثم للمنصور قلاوون . لم يتفق في تاريخ وفاته ولكنها على الأرجح ٦٩٠هـ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبمثله الأعداء في أوكارها فيكاد يتجرد ذيول الهزائم وتبعث الآمال على تمسكها بالنصر ... » [١] .

إن المنصور قلاوون شخصية بطولية امتازت بالحنكة السياسية والذكاء والتخطيط لمحاربة أعداء الدين [٢] .

وقد امتاز المنصور قلاوون بكثرة فتوحاته وغزواته التي أصبحت عبرة وعظة للناس ، إذ يقول محيي الدين بن عبدالظاهر : « ولما كانت غزوات مولانا السلطان ملك البسيطة ، ... ، قد أصبحت ذكرى للبشر ، ومواقفه كم جاءت هي والقدر على قدر ، وقد صارت سِيَرَها وسَيْرها هذه شدْو في الأسمار ... » [٣] .

وقد أشاد محيي الدين بن عبد الظاهر في كتاب آخر له بفروسية المنصور ، الذي أنقذ الأمة وشفى صدرها مشيراً إلى إحياء الخلافة العباسية ، إذ يقول : "وبعد حمد الله على أن أحمدَ عواقب الأمور ، وأظهر للاسلام سلطاناً اشتدت به للأمة الظهور وشفيت الصدور ، وأقام الخلافة العباسية في هذا الزمن بالمنصور كما أقامها فيما مضى بالمنصور ، واختار لإعلان دعوتها من يُحْيي معالمها بعد العفاء ورسومها بعد الدُّثور .. " [٤] .

ويصور القيسراني البطل المسلم الناصر محمد بن قلاوون بالقوي العظيم الذي أباد أعداء الإسلام جميعهم ، إذ يقول : « ... المجاهد ، المرابط ، المظفر ، الملك الناصر ناصر الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، سيد الملوك والسلاطين ،

---

(١) ذيل مرآة الزمان ، ج ٤: ٩ .

(٢) انظر مقالة سيف الدين قلاوون ، جوزيف ، ص ٢١٧ .

(٣) صبح الأعشى ، ج ٧: ٢٩٣ .

(٤) صبح الأعشى ، ج ١٠ /١٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فاتح الأمصار ، مبيد الأرمن والفرنج والتتار ... » [١] .

والبطل المسلم هو الذي تمهّد له الفتوحات وتسهّل على يديه الانتصارات كما يقول القيسراني : « ... كم فتح للإسلام معاقل ومدنا ، واقتلع من أيدي الكفار قلاعاً وحصناً ، كما أرسل جيوشه لغزو المشركين في عقر دارهم ... » [٢] .

وبطل الحروب التتارية ، الناصر محمد بن قلاوون ، بطل تحفّ به الملائكة ، تسعفه بالنصر ، وتسهّله له ؛ إذ يقول ابن أيبك الدواداري : « ... ، والنصر أمامه، والتوفيق رفيقه ، والرفيق الأعلى قد سهّل طريقه ، والملائكة قد حفّت أعلامه وصناجقه ، وقد توكل على الله خالقه ، وروايح النصر قد عطّرت بشذاها الآفاق ، ولوايح القهر قد ظهرت بقدرة العزيز الخلاّق ... » [٣] .

ويؤكد المعنى نفسه الكاتب علاءالدين بن عبدالظاهر مادحاً بطل مرج الصفر الناصر محمد بن قلاوون : « ... ودخلها في هذا اليوم والملائكة تحيّيه عن ربه بتحية وإكرام وتتلو عليه وعلى جيوشه ادخلوها بسلام ... » [٤] .

وقد صوّر علاءالدين بن عبدالظاهر ، ثبات القائد المسلم ، السلطان الناصر ، إذ صوّر قدرته على القتال وخوض المنايا دون رهبة أو وجل ، لا يكترث بعدد وعُدّة عدوه ، قائلاً : « ... ومولانا السلطان يردف مواكبه بحملاته ، ويقدم فتحشى الأعداء مواقع مهابته ، وترجو الأولياء منافع هباته ، ويرى غمرات الموت ثم يزورها ، ويمر في مجال المنايا فيحلو له مريرها ومرورها ، ويقاسم سيوف العدى

---

(١) صبح الأعشى ، ج ١٠:١٢١ .

(٢) القيسراني ، النور اللائح ، الدر الضائع ، دار الإنشاء للصحافة والطباعة والنشر ، ج ١٥:٢ ، ٦٢:٥ .

(٣) كنز الدرر ، ص ٨٢ .

(٤) السلوك ، ج ١ ، ق ١،٢٤:٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شرّ قسمة فعلى عاتقه غواشيها وفي صدورهم صدورها ... » [١] .

وقد تحلى الناصر بالخلق الحميد - هذا البطل المسلم - إذ امتاز بالحنان والرأفة حتى مع عدوه المغول ، كما يشير الدواداري إلى موقفه مع المغول بعد معركة مرج الصفر ، حيث يقول : « فلما نظر الله تعالى إلى ذلهم وكسرهم ، أوحى إلى قلب مولانا السلطان بجبرهم ، فحنى عليهم بقلب رؤوف ، وأجارهم من حتوف السيوف، وعلم أن الإيمان من الكفر قد اشتفى ، وأنه قد قدر وعفا ... » [٢] .

وصوّره القاضي تاج الدين البارنباري * بالعدل والجود والكرم ، يمنح الهبات، ويحكم بالإنصاف ويرفع الظلم عن رعيته ، إذ يقول : « ... ، وأيام سلمه كلها عدل وهبة ، وصدقات مُنجية ، ورفْع ظلامات متشعبة ، وقمع نفوس متوثبة ، وحسم خطوب مستدّة ... » [٣] .

والبطل المسلم محبٌّ للجهاد ، ومقدم عليه بنفس شريفة أبيّة ، يلقى العدو دون رهبة ، ويحاصر ويرابط ويصابر كما يقول شهاب الدين محمود الحلبي عن العادل كتبغا [٤] : « ... ، وفي إقامة الجهاد بنفسه الشريفة وكتائبه ، ولقاء الأعداء كيف شاء من تسيير سراياه ، وبعث مواكبه ، وفي مضايقة العدو حصاره ومصابرته وأنظاره ... » [٥] .

---

(١) السلوك ، ج ١ ، ق ٣:١٠٢٢ .

(٢) كنز الدرر ، ص ٨٧ .

* محمد بن محمد بن عبدالمنعم كان ناظماً ناشراً ، تولى في دمشق كتابة الدست سنة ٧٥١هـ ، ت ٧٥٦هـ (الوافي بالوفيات ، ج ١٦٢/١) .

(٣) صبح الأعشى ، ج ١٤:١٨٩ .

(٤) زين الدين المنصوري، جُعل نائباً للسلطان الناصر، لقبه العادل، ت ٧٠٨هـ في حماة، (الوافي الوفيات ٢١٨/٣)

(٥) صبح الأعشى ،ج ١٠:٤٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والبطل المسلم يلاقي عدوه واثقاً من نصره وهزيمة خصمه إذ يقول الحلبي مادحاً الأمير جمال الدين أقوش الأشرفي [١] : « ... وإذا رمى في حماية الممالك عدداً سبق إلى مقاتله قبل السيوف وعيده ، وإذا جرّد جيشاً إلى أعداء الإسلام جرّت قبل اللقاء ذيول هزائمها ، ورأت الفرار أمنع لها من صوارمها ... ونثلت ما في كنائنها من سهام ضعفت عن الطيران قوادمها ... » [٢] .

وبطل الحروب التتارية يمتاز بالقوة والشجاعة : « لا زالت أوامره بالسيف ماضية ، وبحد حجته قاضية ... » [٣] .

صـــورة المغـول

لقد أكثر الكُتاب من ذكر المغول الأعداء في رسائلهم وتواقيعهم وعهودهم ، هذا العدو الذي نال الذل والخسران والهلاك حيث أصابهم الخوف والألم في مرج الصُفر سنة ٧٠٢هـ كما أصابتهم الخيبة والخذلان كما يقول بهاء الدين أبو الحسن علي بن علي بن أبي سواده الحلبي * : " .... ؛ فحل بهم البلاء من كل جانب وخسرت صفقة المخذولين ، وانقلبوا على أعقابهم خائبين مغلوبين ونُكّست أعلامهم ، وبطل إقدامهم ، وارتعدت فرائصهم ، وزلزلت أقدامهم واشتد بهم الخوف والوجل ، وأيقنوا بالهلاك وحلول الأجل .... " [٤] .

---

(١) جمال الدين أقوش ، ت ٧٣٦هـ ، الوافي بالوفيات ، ٢٢٦:٩ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ١٢:١٢ .

(٣) مخطوط اختيار الاختيار ، مركز الوثائق والمخطوطات ، الجامعة الأردنية ، عمان ، شريط رقم ٥١٨٣ ، ص٣٣ .

* وردت ترجمته ، ص ٦٨ .

(٤) تذكرة النبيه ، ج ١ /٢١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هؤلاء التتار الذين غرهم الشيطان ، فزادهم هواناً وذلاً حتى تبدلت قوتهم وعظمتهم مرضاً وسقماً وخيبة آمال في واقعة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ حيث يقول محي الدين : " فاعتاضوا عن الصحة بالمرض وعن الجوهر بالعرض ، وقد أرخت الغفلة زمامهم وقاد الشيطان خطامهم وعاد كيدهم في نحورهم - إلى أن يقول - : " فأقلعت بهم طرائق الضلال وسارت مراكب أمانيهم في بحار الآمال فتلك آمال خائبة ومراكب للظنون عاطبة .... " (١) .

ويصف صاحب التحفة الملوكية ذل وهوان التتار في الواقعة نفسها قائلاً : "... وأسارى التتار بين يدي المواكب ما بين ماش وراكب وسناجقهم بأيديهم منكوسة وطبولهم على أكتافهم معكوسة وشُعف القتلى منهم محمولة ... " (٢) .

ويؤكد القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر ذلهم وخذلانهم في واقعة حمص سنة ٦٨٠هـ حيث آلت طموحاتهم إلى فشل أكيد ، فقد جمعوا الشجعان والفرسان في هذه المعركة ولكن ثقتهم الأكيدة صارت عليهم وبالاً وهزيمةً نكراء إذ يقول : "وذلك بأن التتار المخذولين جمعوا كل من اعتقدوا في ظنهم أنه يهزم الجمع بمفرده ، وانتخبوا كل شجاع لا يألف غير ظهور الجياد من يوم مولده ، واحتفلوا احتفالاً استصحبوا فيه ما ادخروا وما صانوا وسمحوا بأعزة أكابرهم ومقدمي التمانات الذي ما سُمع قط أنهم في معركة هابوا ولا هانوا ، - إلى أن يقول .. ورأوا أن الموت خير لهم من الهزايم ، فلم يفلت منهم إلا من استمهل السيف ساعة من نهار يوفر بعضهم والموت يقول لهم قل لن ينفعكم الفرار ..... " (٣) .

---

(١) صبح الأعشى ، ج ٣٨٦/٧-٣٨٧ .

(٢) التحفة الملوكية ، ص ١٠٣ .

(٣) ابن الفرات م ٢٢٣/٧-٢٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفتح طرابلس زاد من هوان وتحقير العدو حتى هابوا رؤية الدماء ، وخافوا من خوض المعارك مع الأبطال المسلمين حيث يقول محيي الدين بن عبد الظاهر : "... ، ولما أذل الله ببأسها طوائف التتار في أقاصي بلاد العجم ، وجعل حظ قلوبهم الوجع من الخوف ونصيب وجوههم الوجم ، وأخلى الله من نسورهم الأوكار ومن أسودهم الأجم ، وقُصرت بهم هممهم حتى صاروا يخافون الصبح إذا هجم ، والظن إذا رجم ، وصارت رؤية الدماء تفزعهم ، فلو احتاج احدهم لتنقيص دم لمرض لأحجم من خوفه وما احتجم ... " (١) .

لقد أصبح التتار فريسة للوحوش والسباع في مرج الصُّفر سنة ٧٠٢هـ ، تفتت أحشاءهم ، كما أصبحوا فريسة للألسنة تعلو برؤوسهم لتعتز بقوتها ونصرها ، وتحط من شأن عدوها ، حيث يقول علاء الدين بن عبد الظاهر " وأمست الوحوش تحوش أشلاءهم ، والحوائم ترد دماءهم ، والعساكر في أعقابهم تقتل وتأسر ، .... وتنظم أسنتها برؤوس القتلى وتعقد لها على عقائل النصر فتزف لديها وتُجلى ... " (٢) .

وتشتت التتار في مرج الصُّفر سنة ٧٠٢هـ فمنهم القتيل ومنهم الأسير حتى أصبحوا حديثاً في كل ناحية ، وعبرة لكل شخص ، وغذاء للوحوش والطيور كما يقول صاحب التحفة : " ... ، جهز السلطان خيل الطلب وراء العدو ونظفت من وجدت منهم ، فبادوا قتلى وأسرى وأخذوا في كل أوب قسراً وصاروا حديثاً في الأمصار ، وعبرة لأولى الأبصار ، وتلا عليهم لسان السيف (قل لن ينفعكم الفرار) وتطهرت ديار الإسلام من الأدناس ، وتلا سلطاننا الناصر ذلك من فضل الله علينا

---

(١) نهاية الأرب ، ج ٥ /١٥٧ .

(٢) ملاحق السلوك ، ١٠٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى الناس " [١] .

لقد وقع التتار في الهوان والذل في موقعة قيسارية حتى ندبهم البوم ، تُبعثر الرياح أجسادهم ، وتتصرف الوحوش في أشلائهم حيث يقول محي الدين ابن عبدالظاهر [٢] : " ..... وفي هذا النهار عبر مولانا السلطان -نصره الله - على مكان المعركة لمشاهدة أمم التتار ، وكيف تعاقب عليهم من العِقبان كواسرها ، وكفّ بأسهم من النسور مناسرها . وكيف أصبحوا لا يندبهم إلا البوم ، وتحققوا أن التي أهلكتهم زرق الأسنة لازرق الرُّوم ، فرأهم لمن بقي عبرة ، وعُرضوا على ربهم صفاً ، وجاؤوه كما خُلقوا أول مرة ، وأبصر الرياح لأشلائهم متخطفة ، والهوام في أجسادهم متصرفة ، وشاهدهم وقد هذأهم كل شيء حتى الوحوش والرياح . فهذه من صديدهم متكرعة وهذه عليهم متقصِّفة :

قد سوّدت شجر الجبال شعورهم فكأن فيه مُسِفَّة الغِربان [٣]

وقد نجسّ التتار بدمائهم ثرى الأراضي الإسلامية حتى لم تحلّ للتيمم ودنست مياه الفرات العذبة كما يقول محمود شهاب الدين : " .. ، ومزقت مواكب أعداء الله التتار وهم في رأي العين أعداد الكواكب وخلطت الترب بدمائهم حتى لم يبُح بها اليتم ومزجت بها الفرات حتى ما يحلُ لشارب .. " [٤] .

ويصف ابن عربشاه هوان جيش تيمور وذله ، هذا الجيش الذي قطعته السيوف ودقتهم الرماح حيث يقول : " ... فقصدوا المدينة من الباب المفتوح ، وهم ما بين مهشوم ومجروح ، والسيوف تشقهم ، والرماح تدقهم ، وقد سالت بدمائهم

(١) التحفة الملوكية ، ص ١٦٧/١٦٨ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ١٤/١٨٥ .

(٣) المتنبي ، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب المتنبي ، دار القلم ، بيروت ، ط ٢ ، ص ٤٤٣ .

(٤) حسن التوسل : ٣٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأباطح ونثر من سائر لحمهم كل كاسر وجارح .... " [١] .

والمغول أهل كفر وإلحاد زيغ عن الحق كما نعتهم ياقوت الحموي " فجاس خلال تلك الديار أهل الكفر ، والالحاد ، وتحكم في تلك الأستار أولو الزيغ والعناد .. " [٢] .

ويشكك ابن تَيْمِيَّة في اسلامهم وينعتهم بالجهل والظلم والنفاق حيث يقول : " .... وانكشف لعامة المسلمين شرقاً وغرباً حقيقة هؤلاء المفسدين الخارجين عن شريعة الإسلام ، وإن تكلموا بالشهادتين ، وعلم من لم يعلم ما هم عليه من الجهل والظلم والنفاق والتلبيس والبعد عن شرائع الإسلام ومناهجه ..... " [٣] .

وقد لمح محيي الدين بن عبدالظاهر إلى اعتمادهم على الحيلة والخداع في أثناء الحروب حيث يقول : " وبينما نحن قد شرعنا في أهبة المبيت ، ولم نقضِ الشمل الشتيت ، وإذا بالصادح قد صدح ، والنذير قد سنح رافعاً عقيرته بأن فوجاً من التتار في فجوة هنالك قد استتروا وفي نجوة لغرّةٍ قد انتظروا ... " [٤] .

والعدو قاسٍ يخرب ويسفك الدماء ، إذ يقول محيي الدين بن عبد الظاهر: "فملأوا الأقطار رعباً والبلاد سلباً وأتوا المنازل ، كما تأتي الزلازل ، وطلعوا على بلاد الإسلام طلوع القضاء النازل ... " [٥] .

ويشير د . فؤاد عبد المعطي الصياد إلى قسوة المغول قائلاً : " شرع المغول في مهاجمة المدينة من كل جانب ، وتمكنوا من احتلالها ، وعندئذ تركوا صفاتهم

---

(١) عجائب المقدور / ٨٩ .

(٢) ابن خلكان ، ١٨٦ .

(٣) رسالة ابن تيمية الى السلطان ، ١٢ -١٣ .

(٤) صبح الأعشى ،١٤/١٧٢ .

(٥) تاريخ ابن الفرات ، م ٧ : ٢٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الآدمية، وتحولوا إلى وحوش كاسرة .... " [١] .

وقد وقف ابن تيمية من العدو موقفاً صارماً ، حيث نعتهم بالجهل والضلال والغي حيث يقول : " ..... فإن التتار جهال ، يقلدون الذين يحسنون به الظن وهم لضلالهم وغيّهم ، يتبعونه في الضلال الذي يكذبون به على الله ورسوله ويبدلون دين الله ..... " [٢] .

وجيش التتار كثيف في الحروب كثير العدد كما يقول صاحب التحفة الملوكية في واقعة حمص ٦٨٠هـ : " وجاء التتار أفواجاً ، وقذف عبابهم أمواجاً تتلو أمواجاً " [٣] .

ويقبلون على الحروب بعدد كبير ، وعُدة كالرمال الضخمة يتدفقون كالمياه إذ يقول شهاب الدين محمود الحلبي : " .. وأن التتار المخذولين أقبلوا كالرمال ، واصطفوا كالجبال ، وتدفقوا كالبحار الزواخر وتوالوا كالأمواج التي لا يُعرف لها الأول من الآخر ... " [٤] .

ويؤكد شهاب الدين محمود المعنى ذاته حيث وصف كثافة المغول في واقعة مرج الصُّفر قائلاً : " ..... ، فوافى العدوّ المخذول في مائة ألف من جيوش تسيل كالرمال ، وتعلو الجبال بأشد من الحبال .... " [٥] .

---

(١) د . فؤاد عبد المعطي الصياد ، المغول في التاريخ ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ج١ : ١٣١ ، انظر ايضاً العالم الاسلامي والغزو المغولي : ٣٧، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية: ٤ ، اعصار من الشرق : ٢٢٨ ، مقال غزو المغول للدولة الخوارزمية ، ع ١٨٨ ، ص ٥٥ .

(٢) مجموعة فتاوي ابن تيمية ، م ٤: ٣٠١ .

(٣) التحفة الملوكية : ١٠٠ .

(٤) حسن التوسل : ٢٣٦ .

(٥) نهاية الأرب ، ٥ :١٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد ربط كُتاب هذا العصر بين الليل وكثافة الجيش المغولي ولا عجب في ذلك ، فالضغط والألم والقسوة تجعل الكُتاب يصفون العدو بأبشع الصفات ، ويربطون بينهم وبين اللون الأسود المعتم ، كما يقول صاحب التحفة الملوكية : " ... وأقبلت كراديس التتر كقطع الليل ، لا يتبين فيها الرجل من الخيل .. " (١) .

ويؤكد المعنى الكاتب علاء الدين بن عبد الظاهر في نفس الواقعة ، إذ يقول : " .... وأتى كقطع الليل المظلم بهم ، لا تكاد لولا دفع الله عن بُزاتها تحجم ... " (٢) .

وقد ركز الكتاب على إظهار قوة عدوهم وإقدامهم على القتال ببسالة ، ما وصف الكتاب شجاعة أبطالهم وقادتهم ، وكيفية اختيار المقاتلين ، يقول محيي الدين بن عبدالظاهر في رسالته مبشراً ملك اليمن بالنصر على المغول سنة ٦٧٨هـ ، وجمعوا كل من اعتقدوا في ظنهم أنه يهزم الجمع بمفرده ، وانتخبوا كل شجاع لا يألف غير ظهور الجياد من يوم مولده ... » (٣) .

وقد أشار علاءالدين بن عبدالظاهر إلى شعور العدو بالقوة ، والثقة الأكيدة بالنصر بقوله : « ولما كان بعد الظهر أقدم العدو ... كالسيوف الحداد ... معتقداً أن الله قد بسط يده في البلاد ... متوهماً أن جيشه الغالب وعزمه القاهر متحققاً أنه منصور ... » (٤) .

وأظن أنّ إشارة الكتاب إلى قوة عدوهم ولا سيّما في كتب البشرى بانتصاراتهم ما هي إلاّ للدلالة على عظمة المسلمين وتمجيد انتصاراتهم .

---

(١) التحفة الملوكية ،١٦٦ .

(٢) صبح الأعشى ، ٧ : ٣٥٠ .

(٣) ابن الفرات ، م ٢٢٤/٧ .

(٤) السلوك ، ج ١ ، ق ١٠٢١:٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويشير محمود شهاب الدين الحلبي إلى ملوك التتار الذين يرجون الرضا والولاء من ملوك المسلمين إذ يقول : " حتى إن ملوك التتار الآن يتمنون إرضاءنا وإغضاءنا ، ويستدعون ويدّعون للآباء ولاءنا ، ويطلبون المسالمة بنا ، ويودون نسمة قبول تصدر إليهم عنا ... " (١) .

ويصف الكاتب محيي الدين بن عبد الظاهر ذلّ وهوان ملوك المغول قائلاً في واقعة حمص ٦٨٠هـ : " وقتلنا ملوكهم وغيرهم فعجل الله بأرواحهم إلى النار وأبت الأرض أن تواري جسداً لهم فقذفتهم في المهامة والقفار . وثنى مولانا السلطان العنان ، وملوك المغل الأسارى يساقون بين يديه سكارى وما هم بسكارى، وقد أثمرت رؤوس الرماح بكل بطل كم يحسن رأساً وجعل على اسم الله في قفول جنوده ما أجرى منهم وما أرسى مما رد بأساً وكفى يأساً .. " (٢) .

ويؤكد ابن عبد الظاهر ذلّ ملوك المغل قائلاً : " .. وأن لا تشق لدينا إلا أكباد الناد ، ولا تجز غير شعور ملوك التتار ، تتوج بها رؤوس الرماح ويصعد بها على قمم الصعاد .... " (٣) .

وقد أشار محيي الدين بن عبدالظاهر إلى أحوال التتار ، حيث كثرت الفتن الداخلية بينهم بسبب الطمع في الحكم ، إذ يقول : « وأما التتار فحالهم أظهر، وخبرهم أشهر ، ... » إلى أن يقول « ... ، ولا يزالون مختلفين أبداً إن شاء الله ، يقتل البعض منم البعض حتى يطهّر اللّه منهم الأرض » (٤) .

---

(١) صبح الأعشى ، ٧ : ٣٥٠ .

(٢) تاريخ ابن الفرات ، م ٧ : ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٣) المصدر نفسه ، م ٧ : ٣٥٩ .

(٤) محيي الدين بن عبدالظاهر ، ، تشريف الأيام والعصر في سيرة الملك المنصور ، تحقيق د. مراد كامل ، مراجعة محمد علي النجار ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٦١ ، ص ٦١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذاً كان التتار مختلفين فيما بينهم ، مما أدى إلى تفريقهم كما يقول ابن عبدالظاهر : « ... إن الاختلاف شمل العدو ، وتفرقوا شذر مذر »[1] .

رثـــاء المـــدن

وقد اهتم الكُتاب بالمدن والثغور والحصون الاسلامية كثيراً ، حيث وصفوها، ومدحوا جزءاً كبيراً منها ، كما كانوا يصفون أحياناً سكانها ويصفون طباعهم وعلاقاتهم مع الآخرين .

ولقد كانت المدينة الاسلامية آنذاك القاعدة المهمة للمسلمين ، ولا سيما المدن المهمة الكبرى كمدينة بغداد أو دمشق أو حمص أو غيرها .

وكذلك الثغور والحصون ، فطالما تجد الكُتاب يمدحون المدن وأهميتها من جميع النواحي ، سواء أكانت سياسية ، أم اقتصادية أم اجتماعية ، كما تجد الكتاب يحثون على تحريرها إن كانت أسيرة .

ومن هنا تركزت معظم الكتابات الأدبية آنذاك على وصف المدن والحصون والقلاع بشكل عام ، والتغني بجمالها وحسن موقعها ومنعتها ، وحصانتها ، كما ركز الكُتاب على المدن المحتلة المأسورة لدى العدو حيث بكوها بنثرهم ، ورثوها بكلماتهم وأشاروا إلى الخراب والدمار فيها بعد الغزو .

وسأحاول جاهدة أن أشير إلى نماذج مختلفة تشير إلى وصف المدن والحصون، ونماذج تشير إلى أثر الغزو عليها .

لقد تغنى الكتّاب بالمدن الإسلامية في كتاباتهم المتنوعة ، فها هي دمشق المدينة الحصينة ، القوية ، المنصورة والمصونة ، حصن منيع عزيز ، كما يقول زكي

---

(١) تشريف الأيام ، ص ٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدين الحسين في رسالة كتبها إلى أخيه سنة ٦٧٢هـ مشتاقاً إلى دمشق : " ... معمرة ببأس الحديد والأحجار محمولة على سيح الماء التيار ، مشحونة بالرجال ، منصورة عند القتال مصونة بالمجن والنبال ... " [١] .

وقد تغنى الصفدي [٢] بدمشق مُشيراً إلى جمالها وعلو شأنها حيث يقول : " ... وكانت دمشق المحروسة لها هذه الصفات وعلى صفاها تهبُّ نسمات هذه السمات ، لم يتصف غيرها بهذه الصفة ، ولا اتفق أولو الألباب إلا على محاسنها المختلفة ، فهي البقعة التي يطرب لأوصاف جمالها الجماد ، والبلد الذي ذهب بعض المفسرين إلى أنها إرم ذات العماد وهي في الدنيا أنموذج الجنة التي وُعد المتقون ، ومثال النعيم للذين عند ربهم يرزقون ، وهي زهرة مُلكنا ودُرة سلكنا ...." [٣] .

ومدح المقر الشهابي قلعة دمشق قائلاً : " .. ؛ وقلعة دمشق المحروسة هي التي تفخر بقايا البقاع بالاتصال بسببها ، والتمسك في الشدائد بذيل حسبها ، لا يُهتدى في السلم والحرب بمنارها ، ولا يُقتدى في التسليم والامتناع إلا بآثارها، ولا يستقى إلا بما يفيض على السُّحب من فيض أمطارها ، قد ترجّلت لتبارز ، وتقدمت لتناهز ، .. ، وأثبتت في مستنقع الموت رجلها ، وكشفت للحرب العوان قناعها .... " [٤] .

---

(١) المقريزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ج ١: ٣٧٠ .

(٢) خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي ، تولى الإنشاء في صفد ومصر وحلب ت ٧٦٤هـ . انظر الوفيات م٢:٢٦٨ ، الدرر الكامنة ، ج ٢:١٧٦ .

(٣) صبح الأعشى ، ج ١٢ : ٨٧ .

(٤) صبح الأعشى ، ج ١٢ : ٢٤، ٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما مدينة بغداد فهي أم البلاد : " مدينة دار السلام وحضرة الإسلام ، ذات القدر الشريف والفضل المنيف ، مثوى الخلفاء ومقر العلماء .. " [١] كما قال ابن بطوطة .

هذه المدينة التي احتلت المكانة المرموقة في مولفات الأدباء ، والعلماء وغيرهم .

أما مدينة حلب ، فهي المدينة العزيزة المتميزة بالإتقان كما يقول الرحالة المسلم ابن بطولة : " .. وهي من أعز البلاد التي لا نظير لها في حسن الوضع واتقان الترتيب ... " [٢] .

كما أشار بعض الكتاب إلى مدينة حمص ، تلك المدينة العظيمة ، ميدان الحروب والانتصارات : " وكانت حمص المحروسة من أكبر الممالك القديمة . والمدن العظيمة ، تُغرق الأقاليم في مدها ، وتمتد عساكرها فتعد حُماة حَمَاة من جندها ، وهي من الشام المحروس في ملتقى مواكبه ، ومجر عواليه ، ومجرى سوابقه ومجمع كتائبه ، طالما كان بها الحرب سجالاً ، وطالما سابقت بها الرجال آجالاً ، وكان لنا بها في الحرب يومان ، عوضنا الله أدناهما مما حفظت المعارك وضاقت الأرض بدماء القتلى .... " [٣] .

وقد وصف الكاتب محيي الدين بن عبد الظاهر مدينة طرابلس قائلاً : " ... وكانت طرابلس هي ضالة الإسلام الشريدة ، وإحدى آبقاته [٤] من الأعوام العديدة ؛

---

(١) ابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، طبع بالمطبعة الأزهرية ، مصر ، ط ١ ، ١٩٢٨ ، ج ١ : ١٣٩ . انظر أيضاً مراصد الأطلاع ، ج ١:١٦٣ ، أحسن التقاسيم : ١١٩ .

(٢) رحلة ابن بطوطة ، ج ١ : ٤١ .

(٣) صبح الأعشى ، ج ١٢ ، ص ١٠٧ .

(٤) الابقة : الهاربة ، انظر لسان العرب ، م ١٠ ، ص ٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكلما مرت شمخت بأنفها ، وتأنقت في تحسين منازه منازهها وتزيين ريحانها وعصفها ... " [١] [٢] .

وقد وصف الكتاب القلاع كما قلت سابقاً ، مثال ذلك وصف الكاتب شهاب الدين عبد العزيز بن كمال الدين بن العجمي قلعة الروم ، حيث أشار إلى كونها سهلية تارة ، وجبلية تارة أخرى ، وأنها صعبة المسالك ، تحيط بها الجبال إذ يقول : " ... ؛ متوعرة المعارج ، سهلية جبلية ، سماوية ، أرضية ، بكرخلوب ، حصان قطوب ، قد اكتنفها من الجبال الرواسي .. أصبحت به متظاهرة الحجب ، وسعى الفرات إلى تقبيل أقدامها ، وشمخ بها أنف التيه والعجب ... " [٣] .

أما الحصون ، فقد تألقت في كتابات الأدباء ، حيث وصفوا حصوناً اسلامية كثيرة . مثال ذلك ، قول محمود شهاب الدين الحلبي الذي شبه الحصن بالمرأة الجميلة المتزينة بالقرط ، هذا الحصن الذي يسمو إلى الأعالي في الفلك يجول ويطير ، هذا الحصن الذي شهاب العيون نظرته ، إذ يقول : " قد تقرط بالنجوم ، وتقرطق بالغيوم ، وسما فرعه إلى السماء ورسا أصله في التخوم تخال الشمس إذا علت أنها تنتقل في أبراجه ويظن من سما إلى السُّها أنه ذبالةٌ في سراجه لا يعلوه من مسمى الطير غير نسر الفلك ومرزمه [٤] ..... وحوله الجبال كل شامخ يتصبب عُقاب الجو قطع عقابه وتقف الرياح حسرى إذا توقلت في هضابه تخاف العيون إذا رمقته سلوك ما دونه من المحاجر .... " [٥] .

---

(١) العصف : حطام التبن ودقاق وهو ورق الزرع ، انظر لسان العرب ، م ٩ ، ص ٢٤٧ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ٧ : ٣٩٤ .

(٣) تذكرة النبيه ، ج ١ : ١٥٢ .

(٤) مرزمه : نجم في السماء ، انظر لسان العرب ، م ١٢ : ٢٤ .

(٥) حسن التوسل : ٣٤٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد لاحظنا مما سبق أهمية المدينة الإسلامية عند الكاتب المسلم ، حيث وصفها ومدحها وتغنى بمنعتها ، ولم يكتف الكاتب المسلم بذلك فحسب بل أحسّ بنكبة المدينة ورصد آلامها وأحزانها .

إن التدمير والخراب اللذين أوقعهما المغول في المدن الإسلامية ، لهو ما سجلته كتابات الأدباء ؛ إذ سجلوا ورصدوا ما حل بالبلاد والثغور الاسلامية من دمار وهلاك ، بعد أن أصبحت المدن الإسلامية خالية مقفرة حزينة كما يقول ابن الأثير عن مدينة بخارى " ... ، وأصبحت بخارى خاوية على عروشها، كأن لم تغن بالأمس .... " [١] .

لقد شنعت حملات جنكزخان على المدن الإسلامية حيث يكرر ابن بطوطة المعنى ذاته إذ يقول : " .. وأوغل [٢] في بلاد خراسان وعراق العجم فثار عليه المسلمون في بلخ وفي ما وراء النهر ، فكرّ عليهم ودخل بلخ بالسيف ، وتركها خاوية على عروشها ، ثم فعل مثل ذلك في ترمذ ، فخربت ولم تعمرّ بعد ... " [٣] .

ويشير ياقوت الحموي إلى تبدل الأحوال في مدينة خراسان ، تلك المدينة الرائعة المنعمة الجميلة ذات الرياض النضرة ، حيث آلت إلى مدينة خراب ودمار إذ يقول : " ..... إلى أن حدث بخراسان ما حدث من الخراب والويل المبير والتباب ، وكانت لعمر الله بلاداً موفقة الأرجاء رائقة الأنحاء ، ذات رياض أريضة، وأهوية صحيحة ..... " [٤] .

---

(١) الكامل ، ج ٢ : ٣٦٧ .

(٢) المقصود هنا جنكزخان .

(٣) رحلة ابن بطوطة ، ج ١ : ٢٣٧ .

(٤) ابن خلكان ، ج ٦ : ١٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد تحولت خراسان إلى مأوى للوحوش ، وآلت قصورها أطلالاً يطير في نواحيها طائر الشؤم ، إذ يقول ياقوت : " .... ؛ فأصبحت تلك القصور كالمحو من السطور ، وأمست تلك الأركان ، مأوى للأصداء والغربان ، يتجاوب في نواحيها البوم ، وتتناوح في أراضيها الريح السموم ، يستوحش فيها الأنيس ، ويرثى لمصابها ابليس ... " [١] .

وأشار ياقوت إلى دمار المدن الإسلامية كمدينة هراة [٢] حيث يقول :.... وقد أصابها عين الزمان ، وبكتها طوارق الحدثان ، وجاءها الكفار من التتر فخربوها حتى أدخلوها في خبر كان ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ..... " [٣] .

وقد ورد التتر على مدنية اسفيجاب [٤] سنة ٦١٦هـ ، فقتلوا سكانها ودمروها حتى أصبحت جدراناً محطمة ، يقول الحموي : " ..... ، ثم تبع ذلك حوادث سنة ٦١٦هـ التي لم يجرِ منذ قامت السموات والأرض مثلها ، وهو ورود التتر خذلهم الله من أرض الصين ، فأهلكوا من بقي هنالك ... فيمن أهلكوا من غيرهم ، فلم يبق من تلك الجنان المندرة والقصور المشرفة غير حيطان مهدومة وآثار من أمم معدومة ... " [٥] .

وكذلك الأمر في مدينة شاذياخ [٦] التي خربها التتر لعنهم الله سنة ٧١٧هـ فلم يتركوا بها جداراً قائماً فهي الآن .... تُبكى العيون الجامدة وتُذكي في القلوب

---

(١) ابن خلكان ، ج ٦ : ١٨٦ .

(٢) هراة : بالهاء المفتوحة ، من أمهات مدن خراسان ، انظر معجم البلدان ، ج ٥ : ٣٥٦ .

(٣) معجم البلدان ، ج ٥ : ٣٥٦ .

(٤) بلدة كبيرة من أعيان بلاد ما وراء النهر في حدود تركستان ، معجم البلدان ، ج ٢:٣٩٨ .

(٥) معجم البلدان ، ج ٢ /٣٩٨ .

(٦) شاذياخ : قرية من قرى بلخ ، يقال بانها مدينة نيسابور ، معجم البلدان ، ج ٣ / ٣٠٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النيران الخامدة ..... " [١] كما يقول الحموي .

ومن المدن الهامة التي رثاها الأدباء ، وبكاها الكُتاب ، مدينة بغداد " ... دار السلام هي كعبة الإسلام وحرم الإمام ومعدن الكرام ودار الخلافة ومحل الأمن من المخافة .." [٢] كما يقول ابن الكازروني .

وهكذا كانت بغداد عظيمة ، حتى نزل عليها بلاء المغول فخلت من الناس حيث تشردوا وأصبحت خراباً كما يقول الكازروني : " ....فلما اقتعدت راحلتي وانضيتها في قطع مسافتي ، وافيتها بلدة خالية وأمة جالية ، ودمنة حائلة ، ومحنة جاثمة ، وقصوراً خاوية ، وعِراصاً باكية ، قد رحل عنها سكانها ، وبان عنها قطانها وتمزقوا في البلاد ونزلوا بكل واد ... " [٣] .

لقد تحولت قصور بغداد إلى حطام وتراب ، وصيرها المغول إلى مدينة غير أنيسة ، موحشة ، حزينة كما يقول صاحب المقامة : " .... وقصورها المشيدة مهدوسة ، ونعماؤها مسلوبة معدومة ، موحشة لفقد قطانها ، باكية بلسان الحال على سكانها ، عظام العظام بالية ، تسفي عليها الرياح السافية ... " [٤] .

لقد أهان التتر مقر الخلافة في بغداد : " فرأيت حرم الخلافة مهاناً ، بعد أن كان كعبة وأماناً . ... " كما قال ابن الكازروني [٥] .

---

(١) معجم البلدان ، ج ٣ /٣٠٧ .

(٢) ظهيرالدين الكازروني ، مقامة في قواعد بغداد ، تحقيق كوركيس عواد وميخائيل عواد ، مطبعة الارشاد، بغداد ، ١٩٦٢ ، ص ١٤ .

(٣) مقامة في قواعد بغداد : ١٥ .

(٤) المصدر نفسه : ١٥ .

(٥) المصدر نفسه : ١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويرثي صاحب مقامة في قواعد بغداد راوق أروقة دار الخلافة في بغداد ، هذا الرواق العزيز الرفيع ، الذي تبدلت أحواله فصار حزيناً كئيباً إذ يقول ابن الكازروني : " قد تبدل بعد الأنس بالكآبة حتى صار بهذه المثابة ، يستوقف بلسان حاله ويستبكي على تغير أحواله .... " (١) .

لقد خرب المغول الثغور الإسلامية وأهلكوا الأرواح فيها : " وأصبحت البلاد من بغداد حتى الروم خراباً سباباً ، وقُضي على جميع ما فيها من حرث ونسل فخلت من الأزواج والأبقار والبذور " (٢) كما قال الهمذاني .

لقد أكد مؤرخو هذه الحقبة الزمنية على تدمير هولاكو وغيره من ملوك المغل وقوادهم ، لمدينة بغداد ، وتعذيب أهلها ، حيث أشار ابن كثير إلى قتل الناس قائلاً : " ..... وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الواقعة ، فقيل ثمانمائة وقيل ألف وثمانمائة ألف ، وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نسمة ..... " (٣) .

وأشار صاحب الحوادث الجامعة إلى تخريب التتار لمدينة بغداد حيث حرقوا معظم أنحاء البلد إذ يقول : " .... ، فأحرقت معظم البلد ، وجامع الخليفة وما يجاوره واستولى الخراب على البلد ... " (٤) .

إن الحريق الذي أشعله التتار في بغداد ، طمس الآثار العلمية والثقافية آنذاك كما يقول ابن تغري بردي : " .. وأحرقت كتب العلم التي كانت بها من سائر

---

(١) مقامة في قواعد بغداد : ١٧ .

(٢) الهمذاني ، جامع التواريخ ، ترجمة محمد صادق وآخرون ، دار إحياء الكتب العربية ، م ٢ ، ج ١ : ٣١٢ .

(٣) البداية ، ٥١:٧ .

(٤) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، المكتبة العربية ، بغداد ، ١٣٥١هـ ، ص ٣٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العلوم والفنون ، والتي ما كانت في الدنيا .... " [1] .

وبكى صاحب مراصد الاطلاع بغداد قائلاً : " بغداد كانت أم الدنيا وسيدة البلاد، جاء التتر اليها فخرب اكثرها وقتلوا أهلها كلهم .. " [2] .

ومن المدن الاسلامية التي تعرضت للعدوان المغولي مدينة حلب ، حيث غزاها المغول سنة ٦٥٨هـ ، بعد أن خدعوا أهلها وقتلوا سكانها وسرقوا الديار ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ..... [3] كما يقول ابن كثير .

لقد دمر المغول مدينة حلب وقلعتها وخربوا "اسوار البلد ، وأسوار القلعة ، وبقيت كأنها حمار أجرب ... " [4] كما قال ابن كثير .

وقد رثى الكاتب الشيخ جمال الدين عمر بن ابراهيم بن الحسين الرسعني مدينة حلب في مقامة أدبية ، إذ يقول : " .. وحلبت العيون ماءها على حلب ، وسكبت الجفون دماءها من الصبب ، وألتف عليها الختل والاختلال ، واحتف بها القتل والوبال ، واختطف من أعيانها عرائس الشموس والأقمار ، واقتطف من أغصانها نفائس النفوس والأعمار ، فستر سفور السرور ونشر ستور الشرور ، وتخربت الدور والقصور ونُحرت الحور في النحور ... " [5] .

وقد تعرضت مدينة حلب لغزو تيمورلنك في سنة ٨٠٣هـ حيث " اقتحمت عساكر تمرلنك المدينة ، وأشعلوا فيها النيران ، وجالوا بها ينهبون ويأسرون ويقتلون . واجتمع بالجامع وبقية المساجد نساء البلد ، فمال أصحاب تمر عليهن

---

(١) النجوم الزاهرة ، ٧ : ٥١ .

(٢) مراصد الاطلاع ، ج ١ : ١٦٣ .

(٣) البداية والنهاية ، ج ١٣ / ٢١٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ١٣/٢١٨ .

(٥) تتمة المختصر ، ج ٢ : ٣٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وربطوهن بالحبال ، ووضعوا السيف في الأطفال ، فقتلوهم بأجمعهم ، وأتت النار على عامة المدينة فأحرقتها ، وصارت الأبكار تُفتض من غير تستر ولا احتشام .." [١] كما يقول المقريزي لقد خلت حلب من قطانها فأمست موحشة مظلمة : " .. خاوية على عروشها ، خالية من ساكنها وأنيسها قد تعطلت من الأذان ، وإقامة الصلوات ، وأصبحت مظلمة بالحريق ، موحشة قفراء ، لا يأويها إلا الرخم " [٢] كما قال صاحب السلوك .

ويتحسر صاحب نزهة النفوس والابدان على مدينة حلب التي خمد اهلها ، حيث تبدل حالهم إلى فقر وقلق وألم ، لقد تحسر الصيرفي على الشهباء الجميلة ، التي تحولت إلى حطام ودمار ، تخلو مساجدها من صوت الآذان ، ومنابرها من أداء الخطب إذ يقول : " ..... فصارت الشهباء عبرة للناظرين ، وموعظة للمتذكرين، فكأنها قد صاح بها صائح فإذا أهلها خامدون ، ولسان حالها يقول : على حسرة على العباد الذي كانوا بالأمس في أمن راغدين " فإنا لله وإنا * اليه راجعون ، فصار أغنياؤها فقراء يسألون . وتجارها لابسين ، والإجلال الأعدال يدورون ، ومخدراتها عاريات مأسورات ثكلى عن أولادهن مكسورات وجوامعها ومساجدها عن الاذان والصلاة والخطب خالية ، ودورها على أرضها خاوية ، ولسان حالها يقول : ﴿ هلك عني سلطانيه ما أغني عني ماليه .. ﴾ [٣] .

ومن المدن التي خربها تيمورلنك مدينة سيواس الحصينة ذات الخيرات ، حيث دخلها في السابع عشر من ذي الحجة سنة ٨٠٢هـ وقد تمكن من فتحها في

(١) السلوك ، ج ٣ ، ق ٣ : ١٠٣٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ق ٣ : ١٠٣٤ .

* البقرة : ٤٦ .

(٣) نزهة النفوس ، ج ٢ : ٧٦ ، ٧٧ . الحاقة ، آية ٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

محرم سنة ٨٠٣هـ ، حيث حفر لأهلها خندقاً في الأرض ، أبقاهم فيه وهم أحياء ، ثم " أطلق عنان النهاب ، وأتبع النهب الأسرى والخراب وكانت هذه المدينة من أطرف الأمصار في أحسن الأقطار ، ذات عمائر مكينة ، وأماكن حصينة ، ومآثر مشهودة ومشاهد للخير معهودة ، ماؤها رائق وهواؤها للأمزجة ، .. وسكانها من أحشم الخلائق ، ... ، وأما الان فقد حلت بها الغير ، وتفرق أهلها شذر مذر ، وانمحت مراسم نقوشها ، فهي خاوية على عروشها .. " كما قال ابن عربشاه [١] .

ولم ينس الكتاب نكبة مدنية دمشق من الطاغية تيمور وعساكره ، الذين دخلوها : " ومعهم سيوف مسلوله مشهورة ، .... ، فنهبوا ما قدروا عليه من آلات الدور وغيرها وسبوا نساء دمشق بأجمعهن . وساقوا الأولاد والرجال ، وتركوا من الصغار من عمره خمس سنين فما دونها ، وساقوا الجميع مربوطين في الحبال ." [٢] كما يقول صاحب النجوم الزاهرة .

لقد خرب تيمورلنك قلعة دمشق وجامعها الذي لا نظير له في حسنه وجماله.

وقد رثى الصيرفي هذا الخراب قائلاً : " فبينما المدينة بجامعها على هذه الصفة البهية ، إذ وردت عليها الطغاة من التمرلنكية ، فأزالوا بهجتها بالهدّ والنيران ، وغيروا رسومها وآثارها من العمران ، فصارت النيران كأنها قد نشرت في مدد الطغام ومعصفرات عصائبها ، وصعدت إلى عنان السماء ، عذبات من ذوائبها ... " [٣] .

---

(١) ابن عربشاه ، عجائب المقدور في أخبار تيمور ، المطبعة العثمانية ، مصر ، ١٣٠٥هـ ، ص ٨٤ .

(٢) النجوم الزاهرة ، ج ٢ : ٢٤٥ ، السلوك ، ج ٣ : ١٠٥١ .

(٣) نزهة النفوس ، ج ٢ : ٩٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأحرق تيمور دمشق بنيران عظيمة ، وقودها أهل دمشق حتى " لم تزل النار تأكل ما يليها ، وتفنى ما يشعلها ويقليها إلى أن شملت على دورها ومدارسها ، وعلت على أسواقها ومجالسها ، فكادت تكون كنار القيامة ، وقودها الناس والحجارة ... " [١] .

وقد أشار ابن عربشاه إلى هذا الحريق قائلاً : « ... ولكن النار كانت هي البلاء الداهي والمصاب المتناهي لأنها أحرقت غالب من كان داخل البلد لعدم الغواث ... » [٢] .

هذه النار التي أحرقت النفائس والنفوس ، ومحت معالم دمشق إذ يقول كاتب السيرة : « ... فتشبثت النار بلهيبها وساعدت الريح بهبوبها فتساوتا في محو الآثار ريحاً وناراً ، واستمر على ذلك بإذن الله تعلى ليلاً ونهاراً فاحترق ما بقي من النفائس والنفوس ، وانمحى بلسان النار ما سطر على لوح وجود المدينة من الدروس ، وأمست تلك المغاني لا تسمع فيها لاغية ولا الهمس وأصبحت حصيداً كأن لم تغنَ بالأمس ... » [٣] .

وتغيرت الأحوال في ميادين دمشق حتى : صارت كالعهن المنفوش ، ومحيت بأيدي النار سطور كل جام منفوش ، وأصبح أصحابها كالحمام ينوح على أقفاصها ، وتود اللآلىء أنها لم تخرج اليهم من مغائصها فما منهم إلا رب نعمة سُلبت .. " [٤] .

لقد أبلى تيمورلنك وعساكره في تدمير مدينة دمشق بلاءً حسناً : " حيث هدّوا أسوارها وبنيانها ، وسبوا النساء الجميلات حتى أمست دمشق موحشة

---

(١) نزهة النفوس ، ج ٢ : ٩٠ .

(٢) عجائب المقدور ، ص ٦١٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٦١٢ .

(٤) نزهة النفوس ، ج ٢ : ٩٠-٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خالية وتتمنى أن كانت تراباً . وقد أشار الصيرفي إلى ذلك قائلاً : " .. ؛ ولم تزل دمشق ترى أموراً عجاباً ، ولسان حالها يقول : " يا ليتني كنت تراباً .. " ، فلعبت فيها التمرلنكية يميناً وشمالاً في أرضها : وهاداً وجبالاً ، ولم يزل خيلهم ورجلهم تركض من باب الشهباء إلى جسر الحديد ، ومن جسر الحديد إلى جسر الشريعة الزهراء ، إلى أن خرجوا في أوائل شعبان ، بعد أن أخربوا العمران وهدّوا البنيان، فصارت أسوارها كيماناً سوداً ، ينعق عليها غربانها جرداً .. " [1] .

---

(١) نزهة النفوس ، ج ٢ : ٩٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصـل الثالث

النثر الفني العربي إبّان الغزو المغولي – دراسة فنية

* بنيــة العمـل الأدبـي
* الأسلـــــوب:
  - المحسنات البديعية: السجع والجناس والطباق والمقابلة
  - المصطلحات وأسماء الأعلام
  - أثر القرآن الكريم
  - أثر الحديث الشريف
  - أثر الشعر العربي
  - التأثر بالمثل وأقوال الآخرين
* الصـــورة الفنيـــة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

النثر الفني العربي إبّان الغزو المغولي

- دراسة فنية -

بُنيـة العمل الأدبي

لقد وضع أدباء هذا العصر قوانين وشروط بناء الرسائل من خلال كتاباتهم ومؤلفاتهم ، حيث أكدوا على أهمية افتتاحها وخواتيمها ومدى انسجامها مع الموضوع الذي تُبنى عليه .

لقد عدَّ النقاد براعة الاستهلال من أهم قوانين بناء الرسالة ، حيث يجدر بالكاتب أن يبرع في افتتاحية رسالته والتي تلائم موضوع الرسالة فيما بعد ، ومن أحسن الافتتاحات قبسٌ من القرآن الكريم ، أو نفحة طيبة شريفة من السنة الشريفة ، أو أبيات شعرية بليغة ، واشترط الكتاب في هذه الافتتاحات أن تكون موائمة لمعاني الرسالة حيث « يجعل مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالاً على المعنى المقصود من هذا الكلام إن كان فتحاً ففتحاً ، وإن كان هناءً فهناءً أو كان عزاءً فعزاء وكذلك يجري الحكم في غير ذلك من المعاني »[١] .

والمطّلع على المراسلات التي جرت بين المسلمين المماليك والمغول يلحظ أنه : « لم يكن لها نمط واحد محدد ، بل كان بناء الرسالة معتمداً على الغرض منها ، ... وعلى كونها ابتداءً أو رداً وقد كانت معظم رسائل الردود تُبنى على الرسائل الواردة إلى السلطنة في افتتاحاتها ومادتها وخواتيمها ...»[٢] .

---

(١) ضياءالدين بن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق د. أحمد الحوفي وآخر ، ط ١ ، ١٩٦٢ ، مطبعة الرسالة ، ق٣:٩٦ .

(٢) خالد جبر ، الرسالة الفنية في العصر المملوكي الأول بمصر والشام ، رسالة جامعية ، الجامعة الأردنية ، عمان ، ١٩٩٢ ، ص ١٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو لي أن الرأي السابق الذكر محقٌ في المراسلات التي دارت بين المماليك والمغول ، ولا سيما التي بُنيت عليها رسائل الردود من قبل المسلمين ، مثال ذلك كتاب ايلخان غازان إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون حيث يفتتح كتابه بالبسملة قائلاً : «بسم الله الرحمن الرحيم ، بقوة الله تعالى ، وميامين الملة المحمدية فرمان السلطان محمود غازان» (١) .

وقد ردّ السلطان الناصر محمد بن قلاوون على الكتاب مفتتحاً كتابه بقوله : «بسم الله الرحمن الرحيم ، بقوة الله تعالى وميامين الملة المحمدية ..» (٢) .

ويهدد غازان ويرعد في كتابه قائلاً : «... ، فما بعد الإنذار من عاذر ، وإن لم تتداركوا الأمر فدماء المسلمين وأموالهم مطلولة بتدبيرهم ، ومطلوبة منهم عند الله على طول تقصيرهم» (٣) .

ويرد السلطان الناصر على التهديد قائلاً : «... وأمّا قولهم وإلا فدماء المسلمين مطلولة ، فما كان أغناهم عن هذا الخطاب ، وأوْلاهم بألاّ يصدر إليهم عن ذلك صواب ..» (٤) .

وهكذا يستمر كتاب غازان بالتهديد والتخويف حتى الختام وبنفس الأسلوب يُردّ على الكتاب منذ افتتاحية الرسالة وحتى ختامها .

ويفتتح غازان كتاباً آخر إلى السلطان الناصر قائلاً : «بقوة الله تعالى وإهداء السلام إليكم ، إن الله تعالى جعلنا وإيّاكم من أهل ملة واحدة ..» (٥) .

---

(١) السلوك ، ج ١ ، ق ١٠١٦:٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ١٠١٨:٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ١٠١٧:٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ١٠٢٢:٣ .

(٥) كنز الدرر ، ص ٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويرد عليه الناصر مفتتحاً نص خطابه : «بسم الله الرحمن الرحيم بقوة الله وإقبال دولة السلطان الملك الناصر ..» (١) .

واشتمل كتاب غازان إلى الناصر قضايا عديدة ، ردّ السلطان الناصر عليها رداً مفصلاً لكل فكرة عرضها غازان في كتابه * ، وقد اختتم غازان كتابه بقوله : «... ، فإذا عاد من الملك الجواب ، فليسيّر إلينا هدية الديار المصرية كهدايا الأحباب، لتعلم أن بإرسال الهديّة ، قد حصل منكم في إجابتنا إلى الصلح نيّة ، ونهدي من بلادنا ما يليق أن يُهدى إليكم والسلام الطيب منا عليكم إن شاء الله تعالى ...» (٢) .

ويرد عليه الناصر قائلاً : «وأما طلب الملك الهدية ، من الديار المصرية فليس نبخل عليه وقدره عندنا أجلّ مقدار ، وجميع ما يُهدى إليه دون قدره ، وإن تغالينا في الإكثار . وإنما الواجب أن يُهدى إلينا من العراق بأصنافها ، لنقابل هديته إن شاء الله ** بأضعافها ، ونتحقق صدق نيّته وما انعقدت عليه طويّته ، لنفعل بعد ذلك ما يُرضي الله عز وجل وإن كنا فاعلين ويكون محلّه عندنا أشرف محل ، والحمد لله رب العالمين ..» (٣) .

ويفتتح تيمورلنك نص كتابه إلى السلطان الملك الظاهر برقوق بآي من الذكر الحكيم ثم يتبعه عبارات إرعاد وتهديد حيث يقول : «قل اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه

---

(١) كنز الدرر ، ص ٦٦ .

* انظر أيضاً السلوك ، ج ١ ، ق ٣:٩٧٨ .

(٢) كنز الدرر ، ص ٥٦ .

** وردت في النص (انشاء الله) .

(٣) كنز الدرر ، ص ٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يختلفون واعلموا أنّا جند الله مخلوقون من سخطه مسلّطون على من حلّ عليه غضبه ، لا نرق لشاكٍ ، ولا نرحم باكياً ، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا ، فالويل ثم الويل لمن لم يكن من حزبنا ومن جهتنا ، فقد خربنا البلاد ، وأيتمنا الأولاد وأظهرنا في الأرض الفساد وذلت لنا أعزتها ، وملكنا بالشوكة أزمتها ، فإن خيّل ذلك على السامع واشكل وقال إنّ فيه عليه مشكلاً فقل له : «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة» ، وذلك لكثرة عددنا وشدة بأسنا ..» [١] .

يلاحظ من النص السابق وضوح لهجة القسوة والغرور في خطاب تيمورلنك، وأظن أنه من المستحيل أن يكون كاتب النص السابق مغولياً . فمن العجب أن تجد شخصاً يصف قومه بهذه الصفات ، فلا فخار وزهو في القسوة والظلم ، والإشارة إلى أنهم مخلوقون من سخط الله ، فمن الذي يُخلق من سخط الله !!؟

ويفتتح السلطان الملك الظاهر برقوق كتاب جوابه بآي من القرآن الكريم ، ثم يتبعها بردٍ على ما ذكره من ظلم وتعسف ، حيث يقول : «قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتُذِل من تشاء» ، حصل الوقوف على ألفاظكم الكفرية ، ونزعاتكم الشيطانية ، وكتابكم يخبرنا عن الحضرة وسيرة الكفرة ، وبأنكم مخلوقون من سخط الله ومسلطون على من حلّ عليه غضب الله ، وانكم لا ترقون لشاكٍ ولا ترحموا عبرة باكٍ ، وقد نزع الله الرحمة من قلوبكم وذلك من أكبر عيوبكم ، وهذه من صفات الشياطين لا من صفات السلاطين» [٢] .

---

(١) السلوك ، ص ٨٠٣ ، ٨٠٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٠٥ ؛ تاريخ ابن الفرات ، م ٩ ، ق ٢:٣٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نلاحظ أن أسلوب رد السلطان الظاهر برقوق ، كان قوياً منذ بداية خطابه له، ولا سيما أنه استهلّ خطابه بآي من القرآن تلائم الموضوع وتناسبه ، كان خطابه قوياً واثقاً ، لا يخشى من تهديد وإرعاد تيمورلنك .

ومن جملة تهديد تيمور للسلطان برقوق قوله : « ... ، فخيولنا سوابق ورماحنا خوارق ، وأسنّتنا بوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وجيوشنا كعدد الرمال ، ونحن أبطال ، وأقيال وملكنا لا يرام ، وجارنا لا يضام ، وعزنا أبداً بالسؤدد مقام فمن سالمنا سلم ومن رام حربنا ندم ، ...» [1] .

ويرد عليه السلطان الظاهر برقوق بثقة عميقة ، وقوة عنيفة لا تهاب التهديد، ولا تخشى الوعيد قائلاً : « ... وأما قولكم قلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال، فالقصّاب لا يبالي بكثرة الغنم ، وكثير الحطب يفنيه القليل من الضرم ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين» [2] .

أما بنية المراسلات الأخرى التي دارت بين المسلمين والمغول ، فقد اختلفت عمّا عرضته سابقاً . فهذه رسالة هولاكو أرسلها إلى صاحب حلب الملك الناصر يوسف ، حيث هدّده فيها وأشار إلى قسوتهم وتجبرهم وغرورهم ، ويفتتح هذه الرسالة قائلاً : «الذي يعلم به الملك الناصر صاحب حلب ، أنا نحن قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى ، وقتلنا فرسانها ، وهدمنا بنيانها ، وأسرنا سكانها ، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز [3] : قالت أن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ..» [4] .

---

(١) السلوك ، ص ٨٠٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٠٦ ، انظر أيضاً الدرة المضيئة ، ١٤٦ ؛ النجوم ، ج٢:٥١ .

(٣) النمل ، ٣٤ .

(٤) السلوك ، ج ١ ، ق ٢:٤١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يلاحظ في الرسالة السابقة ، أن الاستهلال فيها يختلف عن أي رسالة أخرى واردة من ملك مغولي ، فكاتب الرسالة يشرع بموضوعه مباشرة دون التمهيد بعبارة معينة أو مصطلح محدد كما في رسالة هولاكو إلى الملك قطز سنة ٦٥٨هـ إذ يفتتحها قائلاً : «من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الأعظم ، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء ..» [١] .

ثم يهدد ويرعد هولاكو قائلاً : «... يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال ، أننا جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلّطنا على من أحلّ عليه غضبه ، فسلّموا إلينا أموركم تسلموا ، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ، وقد عرفتم أننا خرّبنا البلاد ، وقتلنا العباد فلكم منّا الهرب ...» [٢] .

وقد أشار القلقشندي [٣] إلى كتب المغول قبل دخولهم في الإسلام أنها كانت تصرح بالقسوة والعداوة والإرعاد ، وهذا يبدو جلياً وواضحاً فيما عرضته من الرسالتين السابقتين .

وأظن أن كاتب هاتين الرسالتين : رسالة هولاكو إلى الناصر صاحب حلب ورسالته إلى قطز ، ليس إنساناً مغولياً !؟ فمن الذي يصف قومه بالوحشية والقسوة ، فإني أميل كل الميل إلى رأي ناظم رشيد في مقاله «من آثار الغزو التتري في الأدب» إذ يقول : «ألا يرى القارئ في هذه الرسالة أن كاتبها يكره التتر ، ويُبطن لهم الحقد ، ويضمر لهم الشر ، وإلا كيف تفسر قول هولاكو عن

---

(١) صبح الأعشى ، ٦٣:٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ٦٣:٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ٦٣:٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نفسه : «خلقنا من سخطه» و«نحن الكفرة ..» [١] .

وحقاً تجد الكاتب يجيد الأسلوب الشائع في كتابة الرسائل من الاتكاء على القرآن والشعر ، واعتماد المحسنات [٢] ، كما تجده يسخر من هولاكو ويُظهر غروره وتجبره ، وكأنه يُحذر السلاطين المسلمين منه .

ويشير القلقشندي إلى افتتاحيات بعض رسائل المغول - ولا سيّما بعد دخولهم الإسلام - قائلاً : «وكان عادتهم في الكتابة أن يكتب بعد البسملة «بقوة الله تعالى» ثم يكتب بعد ذلك «بإقبال قان فرمان» يعني كلام فلان [٣] .

لقد افتتح غازان نص أمان لأهالي مدينة دمشق سنة ٦٩٩هـ قائلاً : «بقوة الله تعالى وإقبال دولة السلطان محمود غازان ..» [٤] .

ويفتتح غازان مكتوباً آخر قائلاً : «بقوة الله تعالى وميثاق الملة المحمدية فرمان السلطان محمود غازان ..» [٥] .

أما النصوص المتنوعة الأخرى ، والتي كان للمغول ذكر فيها ، فقد اهتم الكتاب المسلمون ببنائها ولا سيّما استهلالها ، فقد افتتح معظم كتاب هذا العصر العهود بخطبة ، مثال ذلك عهد الظاهر بيبرس من إنشاء الصاحب فخرالدين إبراهيم بن لقمان إذ يقول : «الحمد لله الذي أضفى على الإسلام ملابس الشرف ، وأظهر دُرره وكانت خافية بما استحكم عليها من الصَّدَف ، وشيّد ما وهى من عَلائه

---

(١) مجلة آداب الرافدين ، مقال (من آثار الغزو التتري في الأدب ظلال القرنين السابع والثامن) ، ناظم رشيد ، الموصل ، ع ١٢ ، ١٩٨٠ ، ص ٢٠٠ .

(٢) مقال ناظم رشيد ، ص ١٩٨ .

(٣) صبح الأعشى ، ج ٦:٨٤ .

(٤) كنز الدرر ، ص ٢١ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حتى أنسى ذكر ما سف ، وقيّض لنصره ملوكاً اتفق على طاعتهم مَنْ اختلف ..»[١] .

وكذلك الأمر عند القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر ، حيث كتب عهد الملك المنصور قلاوون ، إذ افتتحه بخطبة قائلاً : «الحمد لله الذي جعل آية السيف ناسخة لكثير من الآيات وفاسخة لعقود أولي الشك والشبهات ، الذي رفع بعض الخَلْق على بعض درجات ، وأهّلَ لأمور البلاد والعباد من جاءت خوارق تملكه بالذي إنْ لم يكن من المعجزات فمن الكرامات» [٢] .

وهناك من «يأتي في أثناء العهد بخطبة أو تحميد على عادة المكاتبات ، وأن يذكر بعد صدر العهد حميد أوصاف المعهود إليه ، ويطنب فيها ويثني عليه بما يليق بمقامه» [٣] .

وقد يذكر بعض الكتاب التركيب «أما بعد» ثم يقدم الخطبة ، كما فعل شمس الدين إبراهيم بن القيسراني عهد الملك الناصر «محمد بن قلاوون» إذ يقول : «هذا عهد يعمرُ بك للإسلام المعاهد ، وينصر منك الاعتزام فتغنى عن الموالي والمعاضد -إلى أن يقول- «من عبدالله ووليّه الإمام الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد أمير المؤمنين ، إلى السلطان الأجلّ العالم ، العادل ، المجاهد ، المرابط ، المظفر الملك ، الناصر، ناصر الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، سيد الملوك والسلاطين ، فاتح الأمصار ، مبيد الأرمن والفرنج والتتار» - إلى أن يقول - «أما بعد فالحمد لله الذي أقام ناصر الإسلام وأهله بخير ناصر ، وأحلّ في السلطنة المعظّمة من استحقها بذاته الشريفة وشرف العناصر ..» [٤] .

---

(١) صبح الأعشى ، ج ١٠:١١٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ١٠:١٢٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١٠:٤٤ .

(٤) المصدر نفسه ، ١٠:٥٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الرسائل التي افتتحها الكتاب بالتحميد والخطبة رسائل الغزو كرسالة الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر حيث افتتحها علاءالدين علي بن عبدالظاهر قائلاً : «الحمد لله الذي أيّد الدين المحمدي بناصره وحمى حماه بمن مضى هو وسلفه بأداء فرض الجهاد في أول الزمان وآخره ، وجعل من الذرية المنصورية من يجاهد في الله حقّ جهاده ، ويسهر في سبيل الله ..» [١] .

وقد شرع الحلبي كتاب تقليد كتبه لمتملك سيس من حلفاء المغول ، بالتحميد إذ يقول : «الحمد لله الذي خصّ أيامنا الزاهرة باصطناع ملوك الملل ، وفضل دولتنا القاهرة بإجابة من سأل بعض ما أحرزته لها البيض والأسل وجعل من خصائص ملكنا إطلاق الممالك وإعطاء الدول ..» [٢] .

أما كتب التهاني بالفتوح فقد بسط الكتاب كلامهم فيها ، وشكروا الله تعالى عز وجلّ على قمة النصر ، ثم وصفوا عظمة النصر ومنعته ، كما وصفوا قوة الملك وجيشه وحال العدوّ ، أما من حيث الاستهلال فقد اختلفت بعض الكتب عن غيرها نوعاً ما ، فتجد الكاتب محيي الدين بن عبدالظاهر يفتتح كتاب بشارة بوقعة عين جالوت قائلاً : «أعزّ الله تعالى أنصار المقر الشريف العالي ، المولوي السلطاني ، الملكي ، المنصوري ، وأعلى مناره ، وضاعف اقتداره ، نُعلمه أنه لما كان النصف من شهر رجب الفرد ، فتح الله تعالى بنصر المسلمين على أعداء الدين ..» [٣] .

أما في وقعة حمص فقد كتب القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر كتاب بشرى افتتحه قائلاً : «أعز الله نصرة المقام العالي المظفري الشمسي . ولا زالت

---

(١) السلوك ، ج ١ ، ق٣:١٠٢٧ .

(٢) حسن التوسل ، ٣٦٩ .

(٣) صبح الأعشى ، ج ٧:٣٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البشاير تورد على سمعه وتوقد على ربعه ..» [١] .

وقد افتتح كاتبٌ آخر كتاب بشرى وتهنئة - لوقعة حمص أيضاً - بآي من الذكر الحكيم تنسجم والمناسبة ، إذ يقول : «نصرٌ من الله وفتح قريب . وبشر المؤمنين ، صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس ، نعلمه أننا ضربنا مصافاً مع العدو المخذول على ظاهر حمص ..» [٢] .

أما الكاتب القاضي جمال الدين محمد بن المكرم الأنصاري افتتح كتاب بشرى بنصر المسلمين على التتار سنة ٦٩٤هـ إذ يقول : «أدام الله نعمة المجلس الفلاني وأسمعه من أنبائنا السارّة ما يُبهج الأيام ويسُر الأنام ويشد أزر الإسلام ويدخل قلب كل مؤمن بسلام» [٣] .

وهناك بعض الرسائل التي افتتحها العلماء بآيات متعددة من القرآن الكريم ثم يُتبعها بالسلام والتحميد والصلاة على سيد المرسلين ويذكر «أما بعد» ويشرع بموضوعه ، مثال ذلك رسالة ابن تَيْمِيَّة إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار، إذ يستهلها بعدة آيات من القرآن الكريم إذ يقول [٤] : «بسم الله الرحمن الرحيم (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون) [٥]» .

ثم يذكر آيات أخرى حتى يقول : «إلى سلطان المسلمين ، نصر الله به الدين ، وقمع به الكفار والمنافقين ، وأعزّ به الجند المؤمنين ، وأدالهم به على القوم المفسدين .

---

(١) تاريخ ابن الفرات ، م ٧:٢٢٣ .

(٢) ذيل مرآة الزمان ، ج ٤:٩٥ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ، م ٨:١٩٤ .

(٤) رسالة ابن تيمية : ٩ .

(٥) التوبة : ٣٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، وهو وللحمد أهلٌ ، وهو على كل شيء قدير ، ونسأله أن يصلّي على محمد عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى وآله وسلم تسليماً . أما بعد ..» [١] .

أما رسالة ياقوت الحموي إلى القاضي جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبدالواحد القفطي - يصف حاله مع التتار - فقد استهلها بالدعاء للمرسل إليه إذ يقول :

«بسم الله الرحمن الرحيم، أدام الله على العلم وأهليه، والإسلام وبنيه،وما سوّغهم وحباهم ، ومنحهم وأعطاهم ، من سبوغ ظل المولى الوزير ، أعزّ الله أنصاره، وضاعف مجده واقتداره ، ونصر ألويته وأعلامه -إلى أن يقول -وبعد ...» [٢] .

أما حسن التخلص عند الكتاب فاختلف في بعض الأحيان من رسالة إلى أخرى ، فكتاب العهود كان التخلص عندهم باستخدام التركيب «وبعد» ، كما فعل فخرالدين إبراهيم بن لقمان في عهد الظاهر بيبرس ، فبعد الخطبة يتخلص بقوله: «وبعد ، فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره وأحقهم أن يصبح القلم ساجداً - إلى أن يقول - ولمّا كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالي - إلى أن يقول - وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان ..» [٣] .

وكذلك الحال في عهد السلطان الملك المنصور قلاوون ، فقد تخلص محيي الدين بن عبدالظاهر من التحميد بقوله : «وبعد حمد الله على أن أحمد عواقب

---

(١) رسالة ابن تيمية : ١٠ .

(٢) ابن خلكان ، ج ١٨١:٥ .

(٣) صبح الأعشى ، ج ١١٦:١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأمور وأظهر للإسلام سلطاناً اشتدت به للأمة الظهور » [١] .

أما المراسلات ما بين المسلمين والمغول ، فقد اتخذت نمطاً عاماً في حسن التخلص كما في افتتاحها وخواتيمها ، فقد تخلص الملك الناصر في الرد على كتاب السلطان محمود غازان قائلاً : «فليعلم السلطان المعظم محمود غازان أن كتابه ورد...» [٢] .

أما رسائل الغزو فقد تخلص محيي الدين بن عبدالظاهر في رسالته - بفتح الظاهر لقيسارية الروم - قائلاً : «ولما كان المملوك قد انتظم في سلك الخدم والعبيد - إلى أن يقول - رأى أن يُتحف الخواطر الشريفة من هذه الغزوة بلُمع يُختار منها من يؤلف - إلى أن يقول - وتالله ما ورُخ مثلها في التواريخ الأول ...» [٣] .

أما في رسالته ببشرى فتح طرابلس فقد تخلص محيي الدين بن عبدالظاهر بقوله «المملوك يخدم خدمة» - إلى أن يقول - ولما كانت ... غزوات مولانا السلطان ملك البسيطة ..» [٤] .

أما علاءالدين علي بن عبدالظاهر فقد تخلص في كتابه الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر بعد التحميد والدعاء بقوله : «وبعد فإن الوقائع التي عظمت آثارها في الآفاق - إلى أن يقول - ولما كانت هذه الغزاة المبرورة والحركات التي عدّت حسناتها في صحائف القبول مسطورة ..» [٥] .

---

(١) صبح الأعشى ، ج ١٠:١٢١ .

(٢) السلوك ، ج ١ ، ق ٣:١٠١٨ .

(٣) صبح الأعشى ، ج ١٤:١٥٨ ، ١٥٩ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ٧:٣٩٣ .

(٥) السلوك ، ج ١ ، ق ٣:١٠٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد اختُتمت رسائل العهود والغزوات بالدعاء والحث على الجهاد [١] .

وكانت تُختم بالشعر أحياناً كرسالة محيي الدين بن عبدالظاهر في فتح الظاهر لقيسارية الروم [٢] .

بنية الخطبة :

لقد استهلّ الخليفة العبّاسي الحاكم بأمر الله خطبته بمقدمة فيها التحميد لله وشكره على ما أقام للأمة العباسية من سند يحميها ويحيي معالمها ، ثم الشهادتان والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، قال : « الحمدُ للّه الذي أقام لآل العباس ركناً وظهيراً وجعله لهم من لدنه سلطاناً نصيراً ، أحمده على السراء والضراء ، وأستعينه على شكر ما أسبغ من النعماء ، وأستنصره على دفع الأعداء وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ... وعلى بقية الصحابة والتابعين بإحسان إلى يوم الدين » [٣] .

وبعد هذه الديباجة ، يحث الخطيب الناس على الجهاد داعياً إلى الاهتمام بالإمامة والدفاع عنها : « أيها الناس اعلموا أنّ الإمامة فرض من فروض الإسلام والجهاد محتوم على جميع الأنام ... » [٤] .

ويبدو لي أن الخطيب يشير إلى سبب اجتياح المغول العالم الإسلامي -قبل أن يتحدث عن الغزاة- بطريقة مبطنة غير مباشرة ، فالدماء لا تحقن إلا نتيجة

---

(١) انظر صبح الأعشى ، ج ١٠:١٢٠-١٢٤ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ١٤:١٨٧ ، ١٨٨ .

(٣) ذيل مرآة الزمان ، ج ٢:١٨٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ٢:١٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الضعف والابتعاد عن شرائع الله ، حيث يقول : « ... ولا سبيت الحرم إلا بانتهاك المحارم ، ولا سفكت الدماء إلاّ بارتكاب المآثم ... » [١] .

ثم يشير الخطيب إلى قسوة التتار وما اجترحوه لمدينة دار السلام [٢] .

كما تعرض الخطبة الأثر النفسي لمجتمع المسلمين آنذاك [٣] .

ويختتم الخطيب نص خطبته بالدعاء للمسلمين والاستغفار من الله عزّ وجلّ «واستغفر الله العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين ، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم» [٤] .

أما خطبة ابن المنير قاضي الاسكندرية التي خطبها سنة ٦٥٨هـ عندما ملك المغول الشام ، حيث استهلها بالتحميد لله عزّ وجلّ ، والدعاء له بأن يلطف بعباده نتيجة المصيبة التي ألمّت بهم حيث يقول : « الحمد لله الذي يرحم العيون إذا دمعت . والقلوب إذا خشعت . والنفوس إذا اتضعت . والعزائم إذا اجتمعت . والموجود إذا الأسباب انقطعت . والمقصود إذا الأبواب امتنعت . اللطيف إذا صدمت الخطوب وصرعت ... » [٥] .

ثم الشهادتان والصلاة على الرسول وعلى آله وصبحه أجمعين [٦] .

ثم يشير الخطيب إلى الفتنة التي داهمت المسلمين ، ويربطها بما أصاب المسلمين من جهل وضلال قبل إعلان الإسلام إذ يقول : « ... والفتنة قد احتدّت ،

---

(١) ذيل مرآة الزمان ، ج ٢:١٨٨ .

(٢) انظر المصدر نفسه ، ج ٢:١٨٨ ، ١٨٩ .

(١) انظر المصدر نفسه ، ٢:١٨٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٢:١٨٩ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ٤:٢٠٨ .

(٥) المصدر نفسه ، ج ٤:٢٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والحاجة قد اشتدّت ، ويد الضلال قد امتدّت ، وظلمات الظلم قد اسودّت ، والجاهلية قد أخذت نهايتها . وبلغت غايتها ... » [١] .

ثم يختتم الخطيب خطبته بدعوة الناس إلى التمسك بشريعة الخالق ليصلحوا ما أصابهم من خراب ودمار [٢] .

بنية المقامـــة :

استهلّ ابن الكازروني مقامته في قواعد بغداد كعادة أصحاب المقامات كالحريري والهمذاني وغيرهم ، حيث بدأها بالتركيب المألوف « حدثنا » مشيراً إلى عظمة مدينة بغداد ، مادحاً أهلها ، إذ يقول : « حدثنا قاضي تبريز ، وهو من ثقات المحدثين ... ، قال : كنت لا أريم عن بلدي المألوف ولو رغبت بالألوف . وكنت ضنيناً أن أفارق بلدة بتربتها نيطت علي التمائم . إلاّ أني كنت أسمع من جواب الأقطار ... ، أن دار السلام هي كعبة الإسلام وحرم الإمام ومعدن الكرام ودار الخلافة ومحل الأمن من المخافة ، ... ، وقطانها أعذب الناس أخلاقاً وأكثرهم حياء وإطراقاً ، ... وأعدلهم سيرة ، وأصفاهم سريرة ... » [٣] .

ثم يشير إلى نيته بالرحيل إلى بغداد « فخطر ببالي في بعض الليالي ، أن ألبس سربالي البالي ، وأفارق أشبالي ، وأجعل على الدين اتكالي ... » [٤] .

ويتجه فعلاً نحو بغداد ، وما يكاد يصلها حتى يجدها مدمرة ، خالية خاوية على عروشها : « فنهض بي عزمي لإجابة الداعي ... ، فلما اقتعدت راحلتي

(١) ذيل مرآة الزمان ، ج ٤:٢٠٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٤:٢٠٩ .

(٣) مقامة في قواعد بغداد : ١٤ .

(٤) المصدر نفسه : ١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأنضيتها في قطع مسافتي ، وافيتها بلدة خالية ، وأمة جالية ... ، قد رحل عنها سكانها ، ... ، فوقفت أبكيها وأندب ربوعها ...

وأندب أطلالها تارة وأبكي على فرقة الظاعنينا

فلو ذهبت مقلةٌ بالبكاء لفرط الغرام لكنا عمينا » [١]

ويلاقي قاضي تبريز أحد سكان المدينة « وهناك شخص قد بصر بحالي وهو يذري دمعه لسماع ارتجالي » [٢] .

ثم يصف له مفصلاً ما اقترفته أيدي التتار من قتل وخراب وتدمير في بغداد [٣] .

ويختتم بناء مقامته بالتحميد والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

امتازت هذه المقامة بألوان عديدة من الزخارف اللفظية والمعنوية [٤] ، كما امتازت بالصدق والقوة في التعبير كما اتسمت بالوضوح ودقة التعبير وسهولة الألفاظ .

أما مقامة الرسفي فقد وردت غير كاملة في المصادر إذ يقول ابن الوردي قبل أن يوردها « رأيت مقامة مرصعة وصفها الشيخ الرسفي وذكر فيها وقعة حلب ، ولعلها من أحسن ما قيل في ذلك فمنها ... » [٥] .

---

(١) مقامة في قواعد بغداد : ١٥ .

(٢) انظر المصدر نفسه : ١٦ .

(٣) انظر المصدر نفسه : ١٥ ، ١٦ ، ١٧ .

(٤) انظر مقال ناظم رشيد : ٢٠٢ .

(٥) تتمة المختصر ، ج ٢ : ٣٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو لي أن مقدمة المقامة غير واردة ، والجزء المذكور هو جزء من لب المقامة فقط ، وأظن أن الرسغني تخلص من المقدمة ليشير إلى ما جرى في حلب من عذاب ونكال قائلاً : « ... هذا وقد نزلت فنون البلاء بالشام وهملت عيون العناء كالغمام ... وحلبت العيون ماءها على حلب ... والتف عليها الختل والاختلال ... » [١] .

ويحشد الرسغني الألفاظ والمعاني المتكررة [٢] مشيراً إلى ما جرى في حلب ، ويبدو لي أن هذا التكرار ما هو إلاّ للدلالة على وحشية المغول وقتئذ .

الأسلـــوب :

امتاز أسلوب هذا العصر بالاتكاء على المحسنات البديعية والاعتماد على القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر والرسائل والأمثال وقصص العرب .

وقد أشار د. محمد عبدالمنعم خفاجي إلى طريقة الكتاب في هذا العصر إذ يقول : «وقد سار الكتاب في هذا العصر المملوكي على طريقة القاضي الفاضل» [٣].

لقد شاعت طريقة القاضي بخصائصها المعروفة من السجع الطويل الكثير الفقرات ، ومن المحسنات كالطباق والجناس ومراعاة النظير والتورية والاستخدام، كما يقول د. محمد عبدالمنعم خفاجي [٤] .

---

(١) تتمة المختصر ، ج ٢ : ٣٠٨ .

(٢) انظر المصدر نفسه ، ج ٢:٣٠٨ ، ٣٠٩ .

(٣) د. محمد عبدالمنعم خفاجي ، الحياة الأدبية بعد سقوط بغداد حتى العصر الحديث ، دار الجيل ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٠ ، ص ٦٥ .

(٤) الحياة الأدبية ، ص ٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأشار كثير من الباحثين إلى تأثير الطريقة الفاضلية في الكتابة في عهد المماليك . إذ يقول محمود رزق سليم : «ولقد كان للقاضي الفاضل عميد الأدباء في العصر الأيوبي أثر بارز في الكتابة والشعر في العصر المملوكي لأنه ابتدع للأسلوب طريقته البديعية الخاصة التي أساسها الإكثار من المحسنات» (١) .

كما أشار محمد الحبيب بن خوجة إلى مذهب القاضي الفاضل قائلاً : «وإنّا مع ذلك لفي حاجة إلى الإشارة إلى ما طُبع به رجال هذا العصر طريقتهم في الترسل فقد أخذوا بمذهب القاضي الفاضل ، وهذا المذهب معناه أن الكاتب لا يقتصر على تصوير المعاني بالألفاظ القريبة التي تحضر ذهنه عندما يريد التعبير كما نفعل اليوم بل نجده ينتقي هذه الألفاظ ويختار منها الأجود والأصلح لأداء المعنى المراد ثم هو يحرص كل الحرص على أن يكون لتأليفهم إيقاعات موسيقية ..» (٢) .

لقد أثّر ديوان الإنشاء في فن الرسائل تأثيراً قوياً ، حيث كان آنذاك «رأس الدولة المفكر ووسيلة اتصال الحكومة بفروعها في داخل البلاد ، وبغيرها من الحكومات في خارج البلاد» (٣) .

كما كان يُعد مدرسة تعليمية تخرّج أجيالاً من الكتاب ، إذ يقول د. أحمد بدوي: « ... كان ديوان الإنشاء يُتخذ كمعهد علمي يتخرج فيه من يريد أن يشغل منصباً من مناصبه ، فيلتحق به من يتثقف ثقافة معينة تعينه على مواصلة

---

(١) محمود رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ج ٦ : ١١٦ .

(٢) محمد الحبيب بن الخوجة ، عصر المماليك : الترسل وابن عبدالظاهر ، تونس ، ط ١ ، ١٩٥٦ ، ص ٤٢ .

(٣) أحمد أحمد بدوي ، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ط ٢ ، ص ٣٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السير حتى يتخرج في الكتابة» [١] .

كما ساهمت آراء بعض الكتاب والنقاد في رسم الإطار العام للأسلوب في هذا العصر ولا سيما أصحاب كتب تعليم الإنشاء ، فقد أشاروا إلى أساليب الكتابة باختلاف المناسبات والظروف وأسلوب مراسلة الملوك غير المسلمين ، وتحديد الألقاب وغير ذلك .

وقد ركز الكتاب على ضرورة التخلي عن الزخرفة والبديع في بعض الأحيان [٢] وخاصة نصوص الرسائل والمعاهدات بين المسلمين والمغول فقد كان القصد الأول منها وضوح المعاني من أقرب سبيل» [٣] كما قال د. أحمد بدوي .

وقد ساهمت البيئة في تحديد وتطوير الأسلوب آنذاك ، فالبيئة الطبيعية الجميلة تُنتج أدباً وصفياً دقيقاً ، أما البيئة القليلة التنوع من حيث المناظر والألوان فلا تفتح أبوابها كثيراً أمام الأدباء كما يقول محمود رزق سليم الذي يقارن ما بين البيئة الشامية والمصرية : «... أن البيئة المصرية قليلة المناظر متشابهة الأجزاء ، ضعيفة بهذا التنوع في الشكل واللون والثمر ، هذا التنوع الذي يفتق أخيلة الأدباء ويفتح أمامها آفاقاً من التصورات المبتكرة ، والبيئة الشامية أكثر منها تنوعاً ، ولعل هذا الفرق مضافاً إليه ما انتاب بلاد الشام من اتصال بأمم التتار والفرنجة وغيرهم كان ذا أثر في ذيوع الوصف في أدب الشام مع دقته ورقته بالقياس إلى نظيره في أدب مصر ..» [٤] .

---

(١) أحمد بدوي ، ص ٣٢٤ .

(٢) ابن الصيرفي ، قانون ديوان الرسائل ، مطبع الواعظ بمصر ، ١٩٠٥ ، ص ١٢٩ .

(٣) أحمد بدوي ، ٣٣٠ .

(٤) عصر سلاطين المماليك ، ج ٦:٢٨٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المحسنات البديعية

• السجع :

لقد اتّكأ الكتّاب والأدباء على المحسنات البديعية - كما أسلفت سابقاً - ولا سيّما السجع .

لقد أشار ابن الأثير إلى تعريف السجع قائلاً : «تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور» [١] .

وعلى الرغم من أن بعض النقاد قد انتقد السجع في الكتابة بشدة ، إلا أن الكتاب التزموه منهجاً وأسلوباً في معظم رسائلهم ومعاهداتهم وخطبهم .

أما بالنسبة للمراسلات والنصوص التي وثّقت للغزو المغولي فمنها ما التزم السجع ، ومنها ما لم يلتزم به كرسالة ابن تَيْمِيَّة التي بعثها إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار ، فتجد ألفاظها تخلو من التزيين المنمق والكلام المسجّع . ومن جملة قول ابن تَيْمِيَّة مشيراً إلى هزيمة المسلمين في الخزندار : «فإن هذه الفتنة التي جرت ؛ وإن كانت مؤلمة للقلوب ، فما هي إن شاء الله إلا كالدواء الذي يُسقاه المريض ليحصل له الشفاء والقوة ، ... فرحم الله عباده برحمته التي هو أرحم بها من الوالدة بولدها ، وانكشف لعامة المسلمين شرقاً وغرباً حقيقة حال هؤلاء المفسدين الخارجين عن شريعة الإسلام وإن تكلموا بالشهادتين ..» [٢] .

لقد اعتمد الكُتّاب السجع في كتاباتهم بشكل رئيسي ، حتى احترفه المؤرخون كما يقول فرانز روزنتال : «إن السجعَ سيطر على الكتابة التاريخية خلال تراجم الإطراء التي دوّنها الموظفون لأسيادهم ، ففي هذه الكتب شعروا أنّ

(١) ضياءالدين بن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب ، والشاعر تحقيق د. أحمد الحوفي وأخر مطبعة الرسالة ، ط ١، ١٩٦٢ ، ق ٣:٢٧. ؛ انظر أيضاً الإيضاح في علوم البلاغة ، ص ٣٦٢ .

(٢) رسالة ابن تيمية ، ص ١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مِن واجبهم استخدام مواهبهم في أساليب السجع التي كانت شائعة عند كتاب الديوان ..» [١] .

وأكثر أنواع السجع الغالب على نصوص الغزو المغولي ، هو السجع المتغير من حيث الروي حيث يكتب الكاتب فقرتين متفقتين في روي واحد ثم يأتي باثنتين مختلفتين في الروي دون مراعاة عدد الألفاظ فيهما ، وهذا ما يسمّى بالسجع الحالي الذي أشار القلقشندي إليه قائلاً : «وعليه عمل أكثر الكتاب من زمن القاضي الفاضل وهلمّ جراً ..» [٢] .

ومن ذلك ما جاء في كتاب فتح قيسارية أنشأه القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر ، قال فيه : « ... وأخذنا في اختراق غابات أشجار تُخفي الرفيق عن رفيقه ، وتشغله عن اقتضاء طريقة ينبري فيها كل غصن يرسله المتقدم إلى وجه رفيقه ، كما يخرج السهم بقوة من منجنيقه ، حولها معاثر أحجار كأنها قبور بُعثرت ، أو جبال تفطّرت ، بينها مخائض ، لا بل مغائض ...» [٣] .

ومن ذلك أيضاً قول ابن عبدالظاهر : « ... ، وتمرّنت الخيل على الاقتحام ، والازدحام في التطرق ، وتعوّدت ما تعوّدته الأوعال من التسرب والتسلق ، فصارت تنحط انحطاط الهيْدب ، وترتفع ارتفاع الكوكب ، وتسري سريان الخيال وتمكّن حوافرها الجياد فتزول منها الجبال ..» [٤] .

---

(١) فرانز روزنتال ، علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة د. صالح أحمد العلي ، مؤسسة الرسالة ، ط ٢ ، ١٩٨٣ ، ص ٢٤٢ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ٢:٤٠٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٤:١٦٠ .

(٤) صبح الأعشى ، ج ١٤:١٦٢ ، ١٦٣ ؛ انظر أيضاً صبح ، ج ٨:٦٤ ، ج ٧:٣٨٦ ، ج ١٠:٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن ألوان السجع أيضاً ، «ما تقع في خلال السجعة الطويلة قرائن قصار» ، كما قال القلقشندي [١] ، حيث يأتي الكاتب في فقرته بحرف روي ثابت ، تدخل جملاً قصيرة من خلال هذه الفقرة تكون هي أيضاً على حرف روي ثابت ، مثال ذلك قول ابن المنير قاضي الاسكندرية في خطبة أدّاها أمام الناس بعد دخول التتار على الشام عام ٦٥٨ قال فيها : «... فالله ! الله ! عبادَ الله ! الاعتبار ! الاعتبار ! وأنتم السعداء ، إذا وُعظتم بالاعتبار أصلحوا ما أفسد ، فإن الفساد مقدمة الدمار واسلكوا الجدد ، تنجوا في الدنيا من العار ...» [٢] .

والتزم الكتاب أيضاً بسجعة واحدة في معظم فقرات رسائلهم ، كقول شهاب الدين محمود الحلبي في وقعة مرج الصّفر ، قال فيها : «وبشّره بالفتح الذي أعاد الله به الأمة خلقاً جديداً ، والنصر الذي أنزل الله فيه من الملائكة أنصاراً للملة وجنوداً ، والظفر الذي أطفأ الله به من نار الكفر ما لم يكن يرهب خموداً ، والغزوة التي زلزل الله بها جبال أهل الشرك وقد تدفقت على الأرض أمثال البحار عدداً وعديداً ...» [٣] .

ومن ذلك أيضاً نص مراسلة من الملك الناصر فرج بن برقوق إلى صاحب فاس جاء فيها : «... ؛ وذلك أنه لما اتصل بمسامعنا الشريفة قصدُ العدو إلى جهتنا، ... بادرنا الحركة إليه في عسكر لجب ، وجيوش يضيق عن وُسعها الفضاء الرحب ، من كل بطل عركته الحروب ، وثقفته الخطوب ، وحنكته التجارب ، وعجم عوده بكثرة المنازلات قِراعُ الكتائب» [٤] .

---

(١) صبح الأعشى ، ج ٢:٣١٤ .

(٢) ذيل مرآة الزمان ، ج ٤:٢٠٩ .

(٣) نهاية الأرب ، ج ٥:١٦١ ، ١٦٢ .

(٤) صبح ، ج ٧:٤٠٩ ؛ انظر أيضاً صبح ، ج ١٠:١٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أنواع السجع أيضاً الترصيع ، عرفه ابن الأثير قائلاً : « ... وهو أن تكون كل لفظة من ألفاظ الفصل الأول مساوية لكل لفظة من ألفاظ الفصل الثاني في الوزن والقافية » [١] .

وعدّه القلقشندي من أحسن أنواع السجع وأعلاها » [٢] .

ومن ذلك قول الكازروني : « .. ، وافيتها بلدة خالية ، وأمة جالية ، ودمنة حائلة ، ومحنة جاثمة ، وقصوراً خاوية ، وعراصاً باكية .. » [٣] .

* الجنـــاس :

عرّف العلماء الجناس في كتبهم ومصنفاتهم ، ومنهم ابن الأثير إذ قال : « حدُّ التجنيس أنه : اتفاق الألفاظ واختلاف المعاني » [٤] .

ومن صور الجناس التي وقف الكتاب عليها الجناس التام ، والذي سمّاه ابن الأثير الحلبي بالحقيقي « فهو ما استوت ألفاظه في الخط والوزن والتركيب » [٥] .

وقد أشار الرازي إلى أقسام عديدة للجناس منها التام إذ يقول : « المتجانسان : إما أن يكونا مفردين ، أو أحدهما مفرداً والآخر مركباً أو كلاهما مركباً ، فإن كانا مفردين فالمجانسة التامة إنما توجد إذا تساويا في أنواع الحروف وأعدادها وهيئاتها .. » [٦] .

---

(١) المثل السائر ، ق ٣٦١:٢ ؛ انظر أيضاً نهاية الإيجاز ، ٤٤ ، جوهر الكنز ، ٢٥٤ ؛ الصناعتين ، ٢٨٧-٢٩٠ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ٣٠٤:٢ .

(٣) مقامة في قواعد بغداد : ١٥ .

(٤) ابن الأثير الحلبي ، جوهر الكنز ، تحقيق د. محمد زغلول سلام ، منشاة المعارض ، الاسكندرية ، ص ٩١ ؛ انظر أيضاً : الصناعتين ، ص ٣٥٣ .

(٥) جوهر الكنز ، ٩٢ .

(٦) الرازي ، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، تحقيق د. بكري شيخ أمين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ١، ١٩٨٥ ، ص ١٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الأمثلة على الجناس التام قول محيي الدين بن عبدالظاهر : « ... إلى أن تراءت العين بالعين ، واضطرم نار الحرب بين الفريقين ، ... ، حتى صارت المفاوز دلاصاً ، ومراتع الظُبا للظُبا عراصاً ...» [١] .

ومنه أيضاً : «صدرت هذه المكاتبة تخصه بتحية تتضوع نشراً وتتحفه من متجددات الظفر بشراً ، يملأ الوجود مسرة وبشرى ...» [٢] .

ومن إنشاء القاضي علاءالدين علي بن عبدالظاهر في وقعة مرج الصُفر ، جاء فيه : « ... وراسلوهم بالسُهام ، وشافهوهم بالكِلام [٣] لا الكَلام ..» [٤] .

ومن ألوان الجناس التي استخدمها الكتاب أيضاً ، الجناس الناقص (غير التام) وهو ما اختلف فيه اللفظان في نوع الحروف أو عددها أو ترتيبها [٥] وسمّاه ابن الأثير بالمشبه إذ يقول : «وأمّا المشبه فهو النوع المسمّى بالجناس الناقص» [٦] .

ومنه قول محي الدين بن عبدالظاهر في وقعة حمص سنة ٦٨٠هـ : « ... وكان العدو في مائة ألف مقابل مقاتل ، مناصل مناضل ، مصارم مصادم ، مكالب مكالم...» [٧] .

ومثال ذلك أيضاً قول ابن عبدالظاهر : « ... فعندما شاهدوا نجد الملائكة ، وتحققوا أنّ نفوسهم هالكة ، أخلدت فرقة منهم إلى الأرض فقاتلت ، وعاجت المنايا

(١) صبح الأعشى ، ج ٣٨٨:٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٣٤٥:٧ ؛ انظر ايضاً صبح ، ج ١٥٨:١٤ ؛ السلوك : ١.٣١ .

(٣) مادة كلم : الكِلام (الجراح) لسان العرب ، ج ٥٢٥:١٢ ؛ والكَلام : القول ، ج ٥٢٣:١٢ .

(٤) السلوك ، ج ١ ، ق ١.٢٣:٢ .

(٥) انظر نهاية الإيجار : ١٢٧ ؛ الصناعتين : ٣٣٥ .

(٦) جوهر الكنز : ٩٢ .

(٧) تاريخ ابن الفرات ، م٢٢٤:٧ ؛ انظر ايضاً السلوك ، ٨٤ ؛ صبح ، ج ٦٩:٨ ، ج ٦٧:١٠ ، ج ٤٠٩:٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على نفوسهم وعاجلت ، وباعت نفوس المسلمين لهم وتاجرت وكسرت وما كاسرت...» [١] .

ومن ألوان الجناس التي يقف عليها المطّلع على أدب هذه الفترة ، الجناس المعكوس [٢] حيث يختلف ترتيب الألفاظ في تركيبه ، ومنه قول ابن عبدالظاهر : «... المملوك يخدم خدمة لا يذود المواصلة بها حادث ، ولا يؤخرها عن وقتها أمرٌ كارث ، ولا ينقصها عن تحسينها وترتيبها بواعث الاختلاف ولا اختلاف البواعث ..» [٣] .

- **الطباق والمقابلة :**

اتكأ الكتاب في هذا العصر على فني الطباق والمقابلة . و«المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشيء وضده كالسواد والبياض والليل والنهار» كما يقول ضياءالدين بن الأثير [٤] .

وقيل هو «اشتراك المعنيين في لفظ واحد» [٥] .

أما المقابلة فهي «إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة» [٦] .

---

(١) صبح الأعشى ، ج ١٤:١٦٥ .

(٢) انظر حسن التوسل ، ١٩٧ .

(٣) صبح الأعشى ، ج ٧:٣٥٧ .

(٤) المثل السائر ، ق ٣:١٤٣ .

(٥) جوهر الكنز : ٨٤ ، انظر : معجم البلاغة العربية ، ج ١:١٦٤ .

(٦) العسكري ، كتاب الصناعتين ، تحقيق د. مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٤ ، ص ٣٧١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقول شهاب الدين محمود الحلبي في وقعة مرج الصفّر : «... ويهنئ المولى بهذا الفتح الذي مدّ الله به على الأمة جناح رحمته وفضله ، ومنّ على أيامنا الزاهرة فيه بالشام وأهله ، وبرز فيه الإسلام كله للشرك كله» [١] .

ويقول القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر في عهد السلطان المنصور قلاوون : «ثم الحمد لله الذي جعل الخلافة العبّاسية بعد القطوب حسنة الابتسام ، وبعد الشحوب جميلة الاتسام ، وبعد التشريد كل دار إسلام لها أعظم من دار السلام» [٢] .

كما يشير القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر إلى حال التتار في وقعة عين جالوت ، ساخراً منهم مستعيناً على ذلك باستخدام فن الطباق ، إذ يقول : «فاعتاضوا عن الصحة بالمرض ، وعن الجهر بالعَرَض ، وقد أرْخت الغفلة زمامهم ، وقاد الشيطان خطامهم ..» [٣] .

وتكثر المقابلة في بيان حال العدو بعد هزيمتهم في المعركة ، إذ يقول الحلبي «ولله الحمد الذي أعز دينه ونصره ، وحصد بسيوف الإسلام عدوّ دينه بعد أن حصره ؛ وأباد جيوش الشرك وهم مائة ألف أو يزيدون ، وأفنى أحزاب أهل الكفر وكانوا أمثال الرمال لا يُعدّون ...» [٤] .

كما يشير ياقوت الحموي إلى تخريب التتر في خراسان مقارناً أحوالها قبل الغزو وبعده ، إذ يقول : «إلى أن حدث بخراسان ما حدث من الخراب ، والويل

---

(١) نهاية الأرب ، ج ٥:١٦٢ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ١٠:١٢١ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٧:٣٨٦ ؛ انظر صبح الأعشى ، ج ٧:٤١٠ ؛ نهاية الأرب ، ٥:١٥٨ ، ١٦٢ ؛ صبح ، ج ١٠:١١٦، ١١٩ ؛ السلوك ، ج ١ ، ق ١:١٠١٢ .

(٤) نهاية الأرب ، ج ٥:١٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المبير والتتاب ، وكانت لعمر الله بلاداً موفقة الأرجاء ، رائقة الأنحاء ، ذات رياض أريضة ، وأهوية صحيحة ...» [١] .

ويشير ابن الكازروني مقامته المشهورة إلى حال بغداد قبل وبعد الغزو قائلاً: «فرأيت حرم الخلافة مهاناً ، بعد أن كان كعبة وأماناً ... قد تبدل بعد الأنس بالكآبة حتى صار بهذه المثابة يستوقف بلسان حاله ويستبكي على تغيّر أحواله» [٢] .

كما اتكأ الكتاب على فني الطباق والمقابلة في الإشارة إلى حال الإسلام بعد النصر ، إذ يقول القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر في وقعة حمص ٦٨٠هـ «.. وهي النعمة التي عاد بها عمر الإسلام فتياً وكوكب سعده مضيئاً ويوم نصره بدرياً...» [٣] .

أما علاء الدين علي بن عبدالظاهر فقد اتكأ على فن المقابلة في الإشارة إلى أحوال الإسلام بعد انتصار المسلمين في مرج الصفّر إذ يقول : «... واستقر بها الملك في مهاد السكون بعد القلق ، وتبدّلت بها الملة الإسلامية الأمن بعد الفَرَق ، وأضحى بها وجه الإسلام سافراً بعد تقطيبه ، وطلع بها بدر السرور كاملاً بعد مغيبه ...» [٤] .

المصطلحات وأسماء الأعلام

ومما يسترعي الانتباه في أدب هذه الفترة استعمال الكاتب بعض المصطلحات

(١) ابن خلكان : ١٨٥ .

(٢) مقامة في قواعد بغداد ، ص ١٦ ، ١٧ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ، م ٧:٢٢٣ .

(٤) السلوك ، ج ١ ، ق ٣:١٠٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والأعلام ، ويعلل د. محمود رزق سليم هذه الظاهرة قائلاً : «يرجع سبب ولوع بعضهم إلى أنهم كانوا علماء فقهاءفي الدين ، أو مبرزين في النحو أو غيره ...»[١].

وقد اختلفت مواقف النقاد في استخدام الكاتب لمصطلحات العلوم في المنثور من الكلام ، فتجد صاحب كتاب الصناعتين يرفضها ولا يحبذها [٢] ، ولم يوضح ابن رشيق موقفه منها بالنسبة للمنثور حيث رفضها في المنظوم من الكلام [٣] ، أما ابن الأثير فرأى أن من واجب الكاتب إذا عمل على «صوغ معنى من المعاني ، وأدّاه ذلك إلى استعمال معنى فقهي أو نحوي أو حسابي فليس له أن يتركه ويحيد عنه ؛ لأنه من مقتضيات ذلك المعنى الذي قصده ...» [٤] .

ومن استعمالاتهم لأسماء الأعلام ما جاء في رسالة تهنئة بوقعة حمص من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر : « ... فلما قربوا من حماة المحروسة وبيّنوا بنيانها من قراها واستدنتهم حمص لقراها وثبت لهم مولانا ا لسلطان وثبة شيّبت منهم الوليد وأقدم عليهم أقداماً كان مساوقه فيه مصنفة خالد بن الوليد » [٥] .

ومثال ذلك أيضاً قول الحلبي : « ... فترقى الملوك إلى رتب العزّ من ظهورها وأعدّها لخطبة الجنان إذ الجهاد عليها من أنفس مهورها ، وكلف بركوبها فكلما أكمله عاد وكلما ملّه شرِه إليه فلو أنه زيدُ الخيل [٦] لما زاد ورأى من أدابها ما دل

---

(١) عصر سلاطين المماليك ، ٤٠١:٦ .

(٢) كتاب الصناعتين ، ١٣٥ .

(٣) العمدة ، ١٠٧:١ .

(٤) المثل السائر ، ٢١٢:٣ ، ٢١٣ .

(٥) تاريخ ابن الفرات ، م ٢٢٣:٧ .

(٦) زيد الخيل بن مهلهل بن يزيد ، كان فارساً مغواراً ، أدرك الإسلام ، شاعر مقل مخضرم ، سُمي بذلك لكثرة خيله ، الأغاني ، ج ٤٧:١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على أنها من أكرم الأصائل ..» [١] .

كما شاع استعمال أسماء الأماكن في بعض رسائلهم ، كقول بعض الكتاب في فتح قلعة الروم « ... فلما أشرف عليها منا أشرف سلطان جعل جبلها دكاً وحاصرناها حصاراً ألحقها بعكا وأخواتها ..» [٢] .

ويلاحظ أيضاً ميل الكتاب إلى استعمال أسماء المصنفات والكتب في رسائلهم ، مثال ذلك ما كُتب عن الملك الظاهر برقوق من إنشاء علاءالدين جاء فيه: « ... وإذا سجعه يفوق سجع الحمائم ، ويُزرى بالروض الضاحك لبكاء الغمائم ، وإذا سلامُه قد حيّته الأزاهر وطوى بعَرْفه نشر الروض الزاهر ..» [٣] .

كما وردت في بعض الرسائل ألفاظ مغولية غير عربية مثل : قراغول ، فرمان ، التوامين [٤] .

ومثال ذلك ما ورد في كتاب هولاكو إلى قطز إذ يقول : «من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الأعظم ...» [٥] .

ومما وردت فيه الألفاظ المغولية أيضاً فرمان ايلخان غازان لتأمين أهل دمشق جاء فيه : « ... بقوة الله تعالى ليعلم أمراء التومان ..» [٦] .

ومن الجدير بالذكر أن هناك بعض الرسائل خصّت النصارى الذين كانوا حلفاءً للمغول - حيث ورد ذكر التتار فيها - جاء فيها استخدام بعض ألفاظ

(١) حسن التوسل ، ٣٤٧ ؛ انظر ايضاً صبح الأعشى ، ج ١٠:١٢١ ؛ السلوك ، ج ١ ، ق ١٠٣:٣ .

(٢) تاريخ ابن الفرات ، م ١٣٨:٨ .

(٣) صبح الأعشى ، ج ٢٨١:٧ .

(٤) القان : الملك ، قراغول : حارس الحدود ، التوامين : مقدم عشرة آلاف ، فرمان : رسالة ؛ انظر تشريف الأيام ، ٦٩ ؛ النجوم الزاهرة ، ١٣٨:٨ .

(٥) صبح الأعشى ، ج ٦٩:٨ .

(٦) السلوك ، ج ١ ، ق ١٠١١:١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الديانة المسيحية ، مثال ذلك كتاب تقليد لمتملك سيس من إنشاء الحلبي جاء فيه : « ... وأيّدنا بالملائكة والروح على من جعل الواحد سبحانه ثلاثة فانتصر بالأب والابن والروح ... » [١] .

إن استخدام الكتاب المسلمين لألفاظ غير عربية ، في مراسلاتهم مع المغول ، أو حلفائهم .. كالنصارى ، شيءٌ طبيعي وبدهي ، لأن النزاع بينهما نزاع سياسي ناتج عن اختلاف وصراع في العقيدة [٢] ، كما يرى الدكتور عبدالجليل عبدالمهدي .

وقد أشرت سابقاً إلى أن الكتّاب مالوا إلى استعمال المصطلحات العلمية واللغوية ، حيث توجهوا إلى استخدام المصطلحات الدينية ولا سيما مصطلحات الفقه وعلم الحديث .

ومثال ذلك قول محيي الدين بن عبدالظاهر في كتاب تهنئة عن وقعة عين جالوت جاء فيه : « .. ترفعه رواة الأسل عن الأسنة ، ويُسنده مجر العوالي عن مجر الأعنة .. » [٣] .

ومما وردت فيه الألفاظ الدينية : « .. الحمد لله الذي جعل آية السيف ناسخة لكثير من الآيات ، وفاسخة لعقود أولي الشك والشبهات » كما قال محيي الدين بن عبدالظاهر [٤] .

ومن جواب الملك المنصور إلى ايلخان أحمد تكدار ملك المغول بفارس جاء فيه: « .. ولما فُتح هذا الكتاب فاتَحَ بهذا الخبر المُعلَم ، والحديث الذي صُحِّح عند أهل

---

(١) حسن التوسل : ٢٧٠ .

(٢) انظر رأي الدكتور عبدالجليل عبدالمهدي في كتابه بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ، دار البشير، عمّان ، ١٩٨٩ ، ص ٣٥٤ .

(٣) صبح الأعشى ، ج ٧:٣٨٦ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ١٠:١٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإسلام إسلامه وأصحّ الحديث ما روي عن مسلم ..» [١] .

والمطّلع على رسائل المماليك ابّان هذه الفترة يلاحظ شيوع المصطلحات اللغوية أكثر من غيرها ، وأظن أن هذا الأمر شيء بدهي ، كون أن من شروط الكاتب الجيد اطلاعه ومعرفته الواسعة بعلوم اللغة المختلفة [٢] .

ومن المصطلحات النحوية التي وردت في الرسائل قول شهاب الدين الحلبي مشيراً إلى وقعة مرج الصفّر إذ يقول : «ويشهر في جميع الثغور أن عدو الله وعدو الإسلام دخل في خبر كان ؛ وأن الله تعالى كسر جيوش التتار كسراً لا يُجبر صدعه ، ولا يتأتى إن شاء الله جمعه ..» [٣] .

ومن نسخة جواب إلى صاحب فاس كُتب عن السلطان الملك الناصر فروج بن برقوق جاء فيه [٤] : «.. وانتهينا إلى ما أشار إليه المقام العالي من التلويح إلى ما طرق أطراف ممالكنا الشريفة من طارق الاعتداء ، وما كان من الواقعة التي كاد خبرها لفظاعته يكون كالمبتدا ..» [٥] .

ومن كتاب علاءالدين علي بن عبدالظاهر في وقعة مرج الصفّر جاء فيه : «... والتقى الفريقان بعزائم لم يبئسها في الحرب نكول ولا تقصير، فكان وجمعنا ولله الحمد جمع سلامة وجمعهم جمع تكسير ..» [٦] .

ومن الأمثلة التي وردت فيها المصطلحات البلاغية قول شرف الدين القدسي

---

(١) السلوك ، ج ١ ، ق ٣:٩٨١ .

(٢) انظر صبح ، ج ٥:٣٧٩ ، ٣٨٠ .

(٣) نهاية الأرب ، ج ٥:١٦٤ ؛ انظر ايضاً م ٨:١٤٠ ؛ صبح ، ج ٧:٢٨٢ .

(٤) صبح الأعشى ، ج ٧:٤٠٨ .

(٥) هكذا وردت الألفاظ مخففة .

(٦) السلوك ، ج ١ ، ق ٣:١٠٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في فتح قلعة الروم : « .. فليأخذ حظه من هذه البشرى التي أصبح الدين بها عالي المنار ، .. ذاكراً بموالاة الفتوح أيام الصدر الأول من المهاجرين والأنصار وليشعها على رؤوس الأشهاد ويجعلها في صحف الفتوح السالفة بمنزلة المعنى في القرينة والمثل في الاستشهاد .. » [١] .

أما مصطلحات العلوم الأخرى كالحساب ، والفلك ، فهي قليلة جداً بالنسبة للعلوم الأخرى ، وأظن أن عدم اهتمام الكتّاب والأدباء باستعمال مصطلحات هذه العلوم كثيراً نظراً لاهتمامهم بعلوم الدين واللغة أكثر ، وكون هذه العلوم تناسب مجالات الصراع مع العدو أكثر والمراسلات معهم والحديث عنهم .

ومن الأمثلة على اصطلاحات الفلك قول شرف الدين ا لقدسي في فتح قلعة الروم : « .. وكانت هذه القلعة المذكورة للثغور الإسلامية بمنزلة الشجى في الحلق والتشويه في الخلق والعلة في الصدر والخسوف الطارئ على طلعة البدر ، .. وقد سكن أهلها إلى مخادعة الجار وموادعة التتار .. » [٢] .

اثر القرآن الكريم

لقد كان للقرآن الكريم في النثر ؛ الذي واكب أحداث الغزو المغولي ، أثر واضح - ولا عجب في ذلك - فالكاتب المسلم كان مطلعاً على أحكام القرآن الكريم ، وواعياً لمعانيه وبلاغته وصوره ، ولا سيما أن من شروط الكاتب الجيد حفظ القرآن وفهمه فهماً جيداً ، لذا فتأثر الكتاب بالقرآن الكريم أمر بدهي .

وقد تمثل أثر القرآن في جوانب عديدة منها : اقتباس الآية كاملة ، أو جزءاً

---

(١) تاريخ ابن الفرات ، م ٨:١٤١ .

(٢) المصدر نفسه ، م ٨:١٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منها ، ومنها الإشارة إلى بعض قصص القرآن ، ومنها حلّ الآية الكريمة مع بقاء شيء من لفظها .

وقد أشار ضياءالدين بن الأثير إلى حلّ الآيات قائلاً : «وأمّا حلّ آيات القرآن العزيز فليس كنثر المعاني الشعرية ؛ لأن ألفاظه ينبغي أن يحافظ عليها لمكان فصاحتها ، إلا أنه لا ينبغي أن يؤخذ لفظ الآية بجملته ، فإنّ ذلك من باب (التضمين) ، وإنما يؤخذ بعضه ..» [١] .

وقد أشار ابن الأثير الحلبي إلى مواقف النقاد المختلفة ، من حيث تأثرهم بالقرآن الكريم - ولا سيما حلّ الآيات - إذ يقول : «.. ومنهم مَن يمنع حل الآيات مطلقاً ولا يرى جواز ذلك» [٢] ، «ومنهم من يرى جواز حل الآيات» [٣] ، «ومنهم من لا يمنع حلّ الآيات مطلقاً» [٤] .

ومع هذا الاختلاف في الآراء بين النقاد، إلا أن أثر القرآن الكريم في كتابات الأدباء كان واضحاً جلياً .

وقد برز أثر القرآن الكريم في الرسائل والنصوص ؛ التي واكبت أحداث الغزو المغولي ولا سيما رسائل الجهاد .

ومن اقتباسات الكتاب قول الخليفة في خطبة [٥] : «فشمروا عن ساق الاجتهاد في إحياء فرض الجهاد : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ [٦] .

---

(١) المثل السائر ، ج ١:١٧٠ .

(٢) جوهر الكنز ، ص ٦١٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٦١٠ .

(٤) جوهر الكنز ، ص ٦١٠ . انظر صبح الأعشى ، ج ١:٢٣٤ ؛ خزانة الأدب ، ج ٢:٤٥٥ ، ٤٥٦ .

(٥) ذيل مرآة الزمان ، ج ٢:١٨٩ .

(٦) التغابن : ١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويلاحظ تأثر الكاتب شهاب الدين الحلبي بقصص القرآن الكريم ، فيما كتبه عن الملك الناصر محمد بن قلاوون إذ يقول : « ... ، إلا أن عساكرنا كانت الآن في الممالك والأقاليم التي بيد الكفر : من التتار المخذولين ، ومن يقول بقولهم من أعداء الدين ، تقتل وتأسر ، وتلقى الجيوش الكافرة فتكسب وتكسر ، وتصحبهم حيث حلوا طلائع رعبها وتصبُّحُهم منها أين طلّوا ريحُ عاد التي تدمر كل شيء بأمر ربها ..» [١] .

فقد بدا تأثر الحلبي بقصص القرآن تأثراً واضحاً إذ يشير إلى قصة قوم عاد الذين أهلكوا بالرياح ، وقد أشار عز وجل إليهم بقوله : ﴿ فلما رأوْه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريحٌ فيها عذاب أليم . تدمّر كل شيء بإذن ربها فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ [٢] .

ويتأثر الحلبي بالقصة نفسها في كتاب سلطاني آخر إذ يقول : [٣] « ... ، والإحاطة بعدوّ الله من كل جانب ، ... ، وإحالة وجودهم إلى العدم ، ... واصطلامهم على أيدي العصابة المؤيّدة بنصر الله في حربها ، وابتلاؤهم من حملاتها بريح عاد التي تدمر كل شيء بأمر ربها ...» [٤] .

ويلاحظ تأثر الحلبي بقصص القرآن بقوله في كتاب كُتب عن الملك الناصر محمد بن قلاوون : « ... وتُوضح لعلمه الكريمة أن مكاتبته الكريمة وردت مقصورة على نبأ لا تعيد بذكره ، محصورة على خبر لا ينبغي لمثل مجده أن يُمِرّه على فكره ،

(١) صبح الأعشى ، ج ٧:٣٤٧ .

(٢) سورة الأحقاف : ٢٤ ، ٢٥ .

(٣) حسن التوسل ، ٣٢٤ .

(٤) الأحقاف ٢٥ ، الحاقة : ٦ ؛ انظر أيضاً السلوك ، ج ١ ، ق ١:١٠٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مطلقة عِنان القلم فيما كان ينبغي طيّ خبره وتعفّي أثره وإخفاء سببه وتركه نسياً منسياً فضلاً عن التبجح بذكره والتهنئة به ...» [١] .

فقول الحلبي «تركه نسياً منسياً» جزء من الآية الكريمة التي تتعلق بقصة السيدة مريم : «فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ، قالت يا ليتني مِتُّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً ..» [٢] .

ومن نص فرمان ايلخان غازان : «... فلقيناهم بقوة الله تعالى فكسرناهم وقلعنا آثارهم ، وملّكنا الله تعالى أرضهم وديارهم ، وتبعناهم إلى الرسل وحطّمناهم كما حطم سليمان وجنوده وادي النمل» [٣] .

لقد بدا تأثر كاتب الفرمان بقصة سيدنا سليمان الواردة في كتاب الله العزيز [٤] .

كما يتأثر القاضي علاءالدين علي بن عبدالظاهر بقصة سيدنا يوسف في ما صنّعه في خبر وقعة مرج الصفّر إذ يمدح السلطان الناصر بطل المعركة قائلاً [٥] : «... وفتحت له أبواب نصرها التي يُفضى منها إلى نعمة ونعيم ، وشاهدت عيون أهلها فلما رأيْنه أكبرنه وقطّعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إنْ هذا إلا ملك كريم ..» [٦] .

---

(١) صبح ، ج ٧:٣٤٥١ .

(٢) مريم: ٢٣ .

(٣) السلوك ، ج ١ ، ق ٣ : ١٠١٤ .

(٤) انظر سورة النمل : ١٨ .

(٥) السلوك ، ج ١ ، ق ٣:١٠٣٦ .

(٦) سورة يوسف : ٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن اقتباسات محيي الدين بن عبدالظاهر قوله : « ... وثُرْ لأن تأخذ للخلفاء العباسيين ولجميع المسلمين منهم الثار ، واعلم أن الله نصيرك على ظلمهم وما للظالمين من أنصار .. » [١] .

نلاحظ أن قول الكاتب «وما للظالمين من أنصار» جزء من آية كريمة وردت في أكثر من موقع في القرآن الكريم [٢] .

ومن كتاب تهنئة بوقعة حمص سنة ٦٨٠هـ من إنشاء محيي الدين بن عبدالظاهر قوله : « ... وثنى مولانا السلطان العنان وملوك المغل الأسارى يُساقون بين يديه سكارى وما هم بسكارى [٣] وقد أثمرت رؤوس الرماح بكل بطل .. » [٤] .

ومما هو ملاحظ أن محيي الدين بن عبدالظاهر تأثر بالقرآن الكريم في كتابه عن وقعة عين جالوت أيضاً ، إذ ذكر آية كاملة مع تغيير لفظة واحدة فقط حيث يقول : « ... واقتنصت أسادُ المسلمين المشركين اقتناصاً ، ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مناصاً ... » [٥] .

والآية في القرآن الكريم تنتهي بقوله تعالى : ﴿ ... ولم يجدوا عنها مصرفاً ... ﴾ [٦] .

وأظن أن الكاتب محيي الدين بن عبدالظاهر تأثر بالقرآن الكريم مع بقاء تأثير الصنعة عليه حيث لفظة« مناصا »تناسب لفظة« اقتناصا »في الفقرة السابقة.

---

(١) صبح الأعشى ، ج ١٠:١٢٤ .

(٢) آل عمران : ١٩٢ ، المائدة : ٧٢ ، البقرة : ٢٧٠ . انظر ايضاً صبح الأعشى ، ج ٧:٣٥١ ؛ السلوك ، ج ١ ، ق ١:٤١٦ .

(٣) سورة الحج : ٢ .

(٤) تاريخ ابن الفرات ، م ٧:٢٢٤ .

(٥) صبح الأعشى ، ج ٧:٣٨٨ .

(٦) سورة الكهف : ٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لذا فأعتقد أن الكاتب تعمّد في تغيير اللفظة لتناسب السجع الوارد في النص .

ويجد المطّلع على رسائلهم أن الكتاب أحياناً يدمجون آيات محلولة من نفس السورة ، مثال ذلك قول محيي الدين بن عبدالظاهر في فتح قيسارية يصف صعوبة المعركة : « .. وهبطوا من جبال يستصعبها كل شيء حتى طارق الطيف ، ... ويستهول النجم الثاقب ترفُّع شعابها ، بالقرب منها جبل شاهق يُعرف «بسقر» وما أدراك ما سقر ، لا يُبقي على شيء من الدواب ولا يذر له عقبةً لواحة للبشر ...» [١] .

وهذا إشارة إلى قوله تعالى عزّ وجلّ : «سأصليه سقر * وما أدراك ما سقر * لا تُبقي ولا تذر * لواحة للبشر*» [٢] .

ومن تأثر الحلبي بالقرآن الكريم قوله في تقليد كتبه لمتملك سيس :

« ... ولما كان من تقدم المملكة الفلانية قد زين [٣] له الشيطان أعماله وعقد بحبال الغرور آماله وحسّن له التمسك بالتتار الذين هم لمهابتنا محصورون في ديارهم مأسورون في حبائل أديارهم ..» [٤] .

ومن الجدير بالذكر أن بعض الكتاب [٥] كانوا يستهلون رسائلهم بالقرآن الكريم ، وإن دل ذلك فهو يدل على اهتمام الكتاب بالقرآن الكريم الذي كان مصدر ثقافتهم ، ومدى استيعاب آيات القرآن لمجالات مواضيع رسائلهم وانسجامها مع ظروفهم السياسية والاجتماعية آنذاك .

---

(١) صبح الأعشى ، ج ١٤:١٨٦ .

(٢) سورة المدثر : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ .

(٣) التوبة : ٣٧ ، الأنعام : ٤٣ ، الأنفال : ٤٨ ، النمل : ٢٤ ، النحل : ٦٣ .

(٤) حسن التوسل ، ٣٧١ .

(٥) انظر رسالة ابن تيمية إلى الملك الناصر ، ص ٩ ؛ النجوم الزاهرة ، ج ٢:٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أثر الحديث الشريف

لقد تأثر الكتاب بالحديث الشريف في رسائلهم ومعاهداتهم ، ولا عجب في ذلك ، إذ سيطرت النزعة الدينية على كتاباتهم التي كانت مصدرها القرآن والحديث الشريف ، كما أنّ الحديث الشريف كان من أهم مصادر ثقافة الكاتب .

وقد أشار معظم النقاد إلى اعتماد الكتاب على لفظ الحديث وليس الاعتماد على المعنى فقط ؛ إذ يشير إلى ذلك ابن الأثير الحلبي قائلاً : «فينبغي للمنشئ أن لا يأخذ عند حل الآية والحديث جملة اللفظ ، فإن ذلك من باب التضمين ، ولا يأخذ المعنى مجرداً بكماله إلا إن أراد بذلك الاستشهاد» [١] .

قال شهاب الدين محمود الحلبي في نسخة كتاب كُتب عن الملك الناصر محمد ابن قلاوون [٢] «فمن أجل ذلك رأينا أن اشتغال جيش الإسلام بجانب الكفر هو المهم المقدّم على ما سواه ، والغرض الذي نيتنا فيه إنقاذ أهل الإسلام من كلمة الكفر وتحكّمه «ولكل امرئ ما نواه» [٣] .. إلى أن يقول - وأي حجة لمن لم يقف موقف جهاد وقد قال رسول الله ﷺ : «مَن مات ولم يغزُ ولم يحدّث به نفسه مات على شعبة من نفاق ..» [٤] .

ويبدو تأثر الحلبي بالحديث الشريف جلياً وواضحاً .

وقد تأثر علاء الدين علي بن عبدالظاهر في خبر مرج الصفّر بالحديث

---

(١) جوهر الكنز : ٦٠٩ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ٧:٣٧٤ ، ٣٧٥ .

(٣) العسقلاني ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ، دار الفكر ، كتاب النكاح ، ٦٧م ، ٩:١٥ ؛ الجامع الصحيح ، م ٩:١٧٩ .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٢٩ ، م ٧ ، ج ١٣:٥٦ ؛ انظر أيضاً سنن أبي داود ، ج ٣:١٠ ؛ سنن النسائي ، م ٣ ، ج ٦:٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النبوي الشريف تأثراً واضحاً ، إذ يقول [١] : « ... وقابل العدو بصدره ، وقاتل حتى أفنى حديد بيضه وسمره، ... واشتد أزْراً بأمرائه الذين رأوا الحياة في هذا اليوم مغرماً، وعدوّا الممات فيه مغنما... ويقولون هذا يوم يصيبنا فيه إحدى الحسنيين.. وقالت الملائكة للجيوش المنصورة «يا خيل الله اركبي! ويا يد النصر اكتبي ..» .

حيث تأثر بقول الرسول ﷺ : «يا خيل الله اركبي» [٢] .

كما تأثر علاءالدين بالحديث الشريف في وصف المعركة إذ يقول : « ... فلا ترى إلا بحراً من حديد ، ولا نشاهد إلا لمع أسنة أو بروق سيوف تصيد الصيد ، والسلطان قد أرهف ظباه ليسعر بها في قلوب العدى جمراً ، وألى أنه لا يورد سيوفه الطلا بيضاً إلا ويصدرها حمراً ، والإسلام كأنه بنيان مرصوص ، ونبأ النصر على مسامع أهل الإيمان مقصوص ..»[٣] .

إذ تأثر بقول الرسول ﷺ : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» [٤] .

ومن نص فرمان ايلخان غازان لتأمين أهل دمشق جاء فيها : « .. والسلاطين موصّوْن على أهل الذمة المطيعين ، كما هم موصّون على المسلمين فإنهم من جملة الرعايا ، قال ﷺ : «الإمام الذي على الناس راع عليهم وكل راع مسئول عن رعيته » [٥] .

---

(١) السلوك ، ج ١ ، ق ٣:١٠٣١ ؛ انظر الحديث نفسه : حسن التوسل ، ٢٣٣ .

(٢) أبو داود السجستاني ، سنن أبي داود ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ١٩٨٨ ؛ كتاب الجهاد ، م ٢:٢٥، رقم الحديث ٢٥٦٠ .

(٣) السلوك ، ١٠٢٨ .

(٤) أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري الجعفي ، صحيح البخاري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٢ ، م ٢ ، ج ٢:١٨٣ ؛ باب نصر المظلوم ، حديث ٢٤٤٦ ، الأمالي ، ج ٢:١٣٦ .

(٥) السلوك ، ج ١ ، ق ٣ : ١٠١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو تأثر الكاتب بالحديث الشريف " كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، والأمير راع ، والرجل راع على أهل بيته ، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته " [١] .

ومن جواب الناصر محمد بن قلاوون على كتاب ايلخان غازان [٢] :" .. ومتى ألفت البلاد والعباد منهم هذا الاشفاق ؟ ومتى اتصفت جيوشهم بهذه الأخلاق . وها هم آثارهم موجودة ، ودعاوي خلافها بمشاهدة الحال مردودة ، وهل هذا اعتماد من رمق شخص الاسلام بانسانه ؟ كيف ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "المسلم من سلم الناس من يده ولسانه، وأسارى المسلمين عندهم في أشد وثاق .." .

إذ تأثر كاتب الجواب بقول الرسول " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه " وفي رواية أخرى " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والا من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم " [٣] .

ومن نص خطاب ايلخان احمد تكدار ملك المغول بفارس إلى السلطان الملك المنصور قلاوون سنة ٦٥١هـ إذ يشير إلى انتقاله إلى ملة الاسلام هو ومن معه من التتار جاء فيه : " .. وأن الاسلام يجبُّ ما قبله وأنه تعالى ألقى في قلبنا أن نتبع الحق وأهله ..... " [٤] حيث تأثر كاتب النص بقوله صلى الله عليه وسلم " عن عمرو بن العاص قال : قلت : يا رسول الله أبايعك على أن تغفر لي ما مقدم من ذنبي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الإسلام يُجِبُّ ما كان قبله وأن الهجرة

---

(١) فتح الباري ، م ٩ ، ص ٢٥٤ ، صحيح مسلم ، م٦ ، ج ١٢ ، ص ٢١٣ ، الجامع الصحيح م ٤ ج ٥ : ص ١٧ .

(٢) السلوك ، ج ١ ، ق ٣ : ١٠٢١ .

(٣) فتح الباري كتاب الرقاق ، باب ٢٦ م ١١ : ٣١٦ .

(٤) السلوك ، ج ١ ، ق ٣ : ٩٧٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تجبُّ ما كان قبلها " [١] .

ومن خطبة الخليفة ورد فيها [٢] : " .. فالحرب سجال والعاقبة للمتقين " .

إذ تأثر بجزء من حديث نبوي شريف ، ورد بروايات [٣] عديدة ومواضع كثيرة في كتب الحديث منها : ".. حدثنا علي بن بكر .. عن عبد الله بن عبد الله بن عباس أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل قال له : سألتك كيف كان قتالكم إياه ؟ فزعمت أن الحرب سجال ودول ، فكذلك الرسل تبتلى ثم تكون العاقبة .." [٤].

ومن عهد الظاهر بيبرس من انشاء فخر الدين ابراهيم بن لقمان جاء فيه : "... وهذه الأقاليم المنوطة بك يحتاج إلى نواب وحكام وأصحاب وأي من أصحاب السيوف والأقلام ، فإذا استعنت بأحد منهم في أمورك فنقِّب عليه تنقيباً .. وأن يكونوا عن تحت أيديهم من الرعية اخوانا ، وأن يوسعوهم براً واحساناً ، وأن لا يستحلوا حرماتهم إذا استحل الزمان لهم حرمانا ، فالمسلم أخو المسلم ولو كان عليه أميراً وسلطان ..." [٥] .

إذ تأثر الكاتب بقول الرسول صلى الله عليه وسلم " المسلم أخو * المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرّج عن مسلم كربة ، فرج الله عنه كربة من كربات القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة [٦] .

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ، دار صادر ، بيروت ، م ٤ : ٢٠٤: ٢٠٥ .

(٢) ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ : ١٨٩ .

(٣) الفتح الباري ، المغازي ، م ٧ : ٣٠٧ ، صحيح مسلم بشرح النووي ، م ٦ ، ج ١٢ ، ص ١٠٣ -١٠٦ .

(٤) الفتح الباري ، كتاب الجهاد ، م ٦ ، ص ٢٠ .

(٥) صبح الأعشى ، ج ١٠ : ١١١ .

* ورد هذا الحديث بروايات عديدة انظر الترمذي م ٤ : ٣٤ ، صحيح مسلم ، ج ٢ : ١٢٠ ، ابن ماجه كتاب التجارات ، م ٦ : ٢٢ .

(٦) الفتح الباري ، م ٥ ، ص ٩٧ ، كتاب المظالم ٤٦ ، باب ٣ ، رقم الحديث ٢٤٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اثر الشعر

لقد تأثر الكُتاب بالشعر العربي في كتاباتهم ، فمنهم من أشار إلى قول الشاعر ودوّن بيته ومنهم من حلّ البيت الشعري ، ومنهم من أشار إلى جزء من بيت شعر لشاعر معين .

وقد رأى ضياء الدين بن الأثير أن حلّ الشعر يُقسم إلى ثلاثة أقسام وهو " أن يأخذ الناثر بيتاً من الشعر فينثره بلفظه من غير زيادة " (١) .

والقسم الثاني " أن ينثر المعنى المنظوم ببعض ألفاظه ويعزم عن البعض بألفاظ أخرى " (٢) والقسم الثالث : " فهو أن يؤخذ المعنى فيصاغ بألفاظ غير ألفاظه .... " (٣) .

ويؤكد العسكري على وجوب أخذ الكتاب من غيرهم والاستفادة من انتاج السابقين ولكن شريطة أن يغيروا في المعاني ويكسوها ألفاظاً جديدة إذ يقول : " ليس لأحد من أصناف القائلين غني عن تناول المعاني ممن تقدمهم والصب على قوالب من سبقهم ، ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظاً من عندهم ، ويبرزوها في معارض من تأليفهم ويوردوها في غير حلتها الأولى ، ويزيدوها في حسن تأليفها وجودة تركيبها ... " (٤) .

أما القلقشندي فقد أشار إلى استخدام الكاتب الشعر بقوله : " أعلم أن للكاتب في استعمال الشعر في كتابته ثلاث حالات : الحالة الأولى : الاستشهاد :

---

(١) المثل السائر ، ق ١:١٢٩ .

(٢) المثل السائر ، ق ١ : ١٣٠ .

(٣) المثل السائر ، ق١ : ١٣٢ ، انظر جوهر الكنز ، ص ٦٠٧ ، ٦٠٨ .

(٤) أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، تحقيق ، د . مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٤ ، ص ٢١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو أن يورد البيت من الشعر أو البيتيين أو أكثر خلال الكلام المنثور مطابقاً لمعنى ما تقدم من النثر ، ولا يشترط فيه أن ينبه عليه " بقال" أو نحوه ، كما يشترط في الاستشهاد بآيات القرآن والأحاديث النبوية ، فإن الشعر يتميز بوزنه وصيغته عن غيره من أنواع الكلام ، فلا يحتاج إلى التنبيه عليه " [١] أما الحالة الثانية فهي " التضمين : وهو أن يضمن البيت الكامل من الشعر أو نصف البيت ببعض القرينة " [٢] أما الحالة الأخيرة وهي " أن يعمد الكاتب إلى الأبيات من الشعر ذوات المعاني فيحلها من عُقُل الشعر ويسبكها في كلامه المنثور " [٣] .

لقد تأثر الكتاب ببعض الشعراء العرب في بعض مواضيع رسائلهم كامرىء القيس في وصف الخيل وأبي تمام والمتنبي في وصف المعارك والانتصارات [٤] .

ولا ريب في ذلك ، فامرؤ القيس شاعر اشتهر بوصفه للخيل والوحوش ، كما عُرف الشاعران العباسيان المتنبي وأبو تمام ، بولعهما الشديد في وصف الحروب والفتوحات وتسجيل الانتصارات ولا سيما انهما عاشا فترة صراع مع الروم ، مما جعلهما يكتبان عن الحروب ويصفان المعارك ويمدحان الأبطال .

لقد كانت كتابات الأدباء عن الخيل - إحدى أدوات المعركة الأساسية آنذاك - أثراً من آثار الغزو المغولي ، حيث أطنب بعض الكتاب في وصف الخيول : شكلها ، قوتها ، صلابتها ، مثال ذلك قول الحلبي يصف خيلاً : " ... لين الأعطاف سريع الانعطاف يقبل كالليل ويمر كجلمود صخر حطه السيل يكاد يسبق ظله " [٥] .

---

(١) صبح الأعشى ، ج ١ : ٣٢١ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ١ : ٣٢٩ .

(٣) صبح الأعشى ، ١٥: ٣٢٩ ، انظر ايضاً صبح الأعشى ، ج ١ (٣٣٠-٣٤٦) .

(٤) انظر خالد جبر ، و.ج ، ص ٢٠٨ .

(٥) حسن التوسل : ٣٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد تأثر الحلبي بالشاعر امرىء القيس في قوله :

مكر مفر مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطّه السيلُ من عَلِ [١]

وقال الحلبي أيضاً يصف الخيل : " .... ومن كميت نهدٍ كأن راكبه في مهد ، ... وكأن نغم الغريض ومعبد في لهواته قصير المطا فسيح الخطا إن ركب لصيد قيد الأوابد ، ... " [٢] وقوله ايضاً : " .. له من البرق خفة وطئه وخطفه ومن النسيم لين طروقه ولطفه ، ومن الريح هزيزها إذا ما جرى شأوين وابتلّ عطفه يطير بالفخر ويدرك بالرُياضة مواقع الرُمز .... " [٣] .

فالكاتب متأثر بقول امرىء القيس :

وقد اغتدى والطير في وُكُناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل [٤]

وقوله ايضاً :

إذا ما جرى شَأْوَين وابتلّ عِطْفُه تقولُ هزيزُ الريح مرّتْ بأثأبِ [٥]

وقد تأثر الحلبي بالشاعر النابغة الذبياني في قوله في نسخة كتاب كُتب عن الملك الناصر محمد بن قلاوون إذ يقول : " هذا وما وضعت الحرب إلى الآن أوزارها ولا خمدت نار الوغى التي أعدت جيوشنا المنصورة للأعداء أورارها وما يمضي وقت إلا والبشائر متواردة علينا بفتح جديد ، .... ، وقصارى أمر العدو الآن انهم

---

(١) امرؤ القيس ، ديوان امرىء القيس ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، مصر ، ط ٤ : ص١٩ .

(٢) حسن التوسل ، ٣٤٥ .

(٣) حسن التوسل ، ٣٤٥ .

(٤) ديوان امرىء القيس ، ص ٥١ .

(٥) ديوان امرىء القيس ، ص ٦٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ليس لهم بلد الا وقد (أخنى عليه الذي أخنى على لُبد) ولا دارٌ إلا وقد أضحت كدارمية التي (أقوت وطال عليها سالف الأمد) [١] .

إذ يشير الحلبي إلى قول النابغة في معلقته :

"يا دارميّة بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد

أمست خلاءً وأمسى أهلها احتملوا اخنى عليه الذي أخنى على لبد" [٢]

يقول محيي الدين بن عبدالظاهر في رسالة له أنشأها بفتح الملك الظاهر لقيسارية واقتلاعها من أيدي التتار [٣] : " .... ؛ ونزلنا تلك الليلة قريب قرية تقربُ من قيصرية من حقوق وادي صلعومة شرقي الجبل المعروف بعسيب ، ... :

أجارتنا إن الخُطوبَ تنوبُ وإني مقيم ما أقامَ عسيبُ

أجارتنا إنا غريبان هَا هُنَا وكلُ غريبٍ للغريب نسيبُ [٤]

ويبدو تأثر ابن عبدالظاهر بالشاعر امرىء القيس واضحاً من خلال البيتين السابقين .

لقد أشرت سابقاً إلى تأثر الكتاب ببعض شعراء العصر العباسي ، وخاصة المتنبي الذي امتاز بالشعر الجزل الفخم ولا سيما أنه امتاز بشعر الحروب والفتوحات ، حيث إن الصراع كان قائماً بين المسلمين والروم .

---

(١) صبح الاعشى ، ج ٣٤٨/٧ .

(٢) النابغة الذبياني ، ديوان النابغة الذبياني ، دار صادر بيروت ، ص ٢٠، ٢١ .

(٣) صبح الاعشى ، ج ١٤ : ١٧٤ .

(٤) انظر ديوان امرىء القيس ، ص ٣٥٧ ورد في الديوان أجارتنا (إن المزار قريب)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد كتب القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر نسخة رسالة أنشأها بسبب فتح الملك الظاهر لقيسارية الروم واقتلاعها من أيدي التتار ، أتكأ الكاتب في هذه الرسالة الطويلة التي وصف فيها الفتح يوماً يوماً ، وخطوة خطوة - على شعر المتنبي فلا تخلو فقرة إلا والكاتب يستعين ببيت أو اثنين من شعر المتنبي ، أو جزء من بيت ، وأحياناً كان يشير إلى اسم الشاعر ، كقوله مثلاً [١] : "... ، فسرنا في جبال نشتهي بها سلوك الأرض وأودية تهلك الأشواط فيها إذا مُلئت الفروج من الركض نزور ديارا ما نحب مغناها ولا نعرف أقصاها من أدناها ، واستقبلنا الدرب كما قال المتنبي :

رمى الدرب بالخيل العتاق * إلى العدا ... وما علموا أن السهام خيولُ

شوائل تَشْوال العقارب بالقنا ... لها مرحٌ من تحته وصهيلُ

فلما تجلّى من دَلُوكَ وصنجةٍ ... علت كُلَّ طودٍ رايةٌ ورعيلُ

على طُرُقٍ فيها على الطُّرْقِ رفعةٌ ... وفي ذكرها عند الأنيسِ خمولُ " [٢]

وقول الكاتب أيضاً يصف أحد أمراء جيش التتار قائلاً [٣] : " ... ، فكان البرواناة أحق بقول أبي الطيب :

نجوتَ بإحدى مهجتيك جريحةً ... وخلّفْتَ إحدى مهجيتك تسيلُ

أتُسْلِمُ للخَطِّيّةِ ابنَكَ هارباً ... ويسكُنُ في الدنيا اليك خليل " [٤]

---

(١) صبح الأعشى ، ج ١٤ : ١٦٠ .

* في الديوان (بالجرد الجياد) .

(٢) أبو الطيب المتنبي ، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب المتنبي ، شرح ناصيف اليازجي ، دار القلم ، بيروت ، ط ٢ ، (ب، ت) ص ٣٧٠ .

(٣) صبح الأعشى ، ج ١٤ / ١٦٩ .

(٤) الديوان ، ص ٣٧٤ ، انظر ايضاً صبح الأعشى ج ١٤ ، ١٤٥/١٧٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يُشر محيي الدين بن عبدالظاهر في بعض فقرات رسالته إلى اسم المتنبي كقوله مثلاً : [1] " ..... ، تحملُ همنا الخيل العتاق ، ويكبو البرق خلفنا إذا حاول بنا اللحاق ، وكلٌ يقول لسلطاننا نصره الله .

أين أزْمَعْتَ أيهذا الهُمام ؟ نحن نبتُ الرُّبا وأنت الغمام [2]

ومرّ لا يفعل السيفُ أفعاله ، ولا يسير في مهمة إلا عمه ولا جبل إلا طاله : تسايره السواري والغوادي ، ولا ينفك الغيثُ من انسكاب في كل نادٍ ووادي :

فباشَرَ وجهاً طالما باشر القَنَا وبَلَّ ثياباً طالما بلَّها الدَّمُ [3]

وكان مولانا السلطان من حلب قد أمر جميع عساكره بادّراع لا مات حربهم ، وحمل آلات طعنهم وضربهم :

فجاز له حتى على الشمس حُكمَهُ وبانَ له حتى على البدر ميسمُ [4]

يُمدُّ يَدَيْـه في المُفَاضَـةِ ضيغمٌ وعيْنَيْهِ من تحت التريكةِ أرقمُ [5] "

وقد استخدم محيي الدين صدر بيت للمتنبي ، إذ يقول في نفس الرسالة "..والقنا تقرعُ وموجُ المنايا حولها متلاطم ، وقيل حقيقة هناك على قدر أهل العزم تأتي العزائم " [6] .

---

(١) صبح الأعشى ، ج ١٤ : ١٥٩

(٢) الديوان ، ص ٢٦٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣١١ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٠٩ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٣١٢ ، انظر ايضاً صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ١٦٨/١٨٤ .

(٦) صبح الأعشى ، ج ١٤ / ١٦١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حيث استفاد الشاعر من مطلع قصيدته ، التي مدح فيها سيف الدولة مشيراً إلى معركة الحدث إذ يقول :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم [١]

واتّكأ الكاتب على حل بعض أبيات المتنبي ، استخدمها في قوله مشيراً إلى عساكر المسلمين [٢] : " فبتنا بها وانثنينا وخيلنا مبثوثة فوق " الأحيدب" كما نثرت الدراهم فوق العروس وحوافرها على الوكور في أعلى القنن تدوس ، إذا زلقت تمشي على صلد الصفا كالأراقم على البطون وإن تكاسلت جر بعضها بعضاً بالصهيل : " والحديث شجون" ؛ وخضنا في أثناء ذلك مخائض سوافح .. " إذ يشير الكاتب إلى أبيات المتنبي [٣] :

نَثَرَتْهُمُ فوقَ الأحيدبِ كُلِهِ كما نثرت فوقَ العروس الدراهمُ

تدوسُ بك الخيلُ الوُكور على الذرى وقد كَثُرَتْ حَوْلَ الوُكورِ المطاعمُ

إذا زَلِقَتْ مَشيَتُهَا بِبُطونِها كما تتمشّى في الصَعيدِ الأراقمُ

أما قول الكاتب " والحديث شجون" فهو متأثر بقول المتبي :

يا بدرُ إنّك والحديثُ شجونُ من لمْ يكنْ لمثاله تكوينُ [٤]

وقد تأثر الكاتب علاء الدين بن عبدالظاهر بالمتنبي ، في رسالة فتح مرج الصُّفر سنة ٧٠٢هـ ، حيث يشير إلى السلطان الناصر قائلاً " ... ورأى الأبطال من

(١) الديوان ، ص ٤٠١ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ١٦٢/١٤ .

(٣) ديوان المتنبي ، ص ٤٠٥-٤٠٦ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٥٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أوليائه جرحى في سبيل الله والأعداء مهزومة والوجه منه وضّاح والثغر باسم"[١] .

وقال علاء الدين يصف البطل في نفس المعركة : " .. والسلطان قد ثبت في موقف المنايا حتى كأنه في جفن الردى وهو نائم ... " [٢] .

حيث حلّ الكاتب بيتي المتنبي :

وقفتَ وما في الموت شكٌ لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائمُ

تمرّ بك الأبطالُ كلمى هزيمةً ووجهُك وضّاحٌ وثغرُك باسم " [٣]

ويصف علاء الدين بطل المعركة في الرسالة نفسها : " ... ، وهو خلّد الله سلطانه - يسير الهوينا وينظر بعين خيّرة هذا المحفل ، ..." [٤] .

إذ يتأثر علاء الدين فيما سبق بقول الأعشى [٥]

غرّاءُ فرعاءُ مصقولٌ عوارضُها تمشي الهوينا كما يمشي الوجيُّ الوحلُ

ومن نسخة جواب المنصور قلاوون على رسالة ايلخان احمد تكدار ، جاء فيه: "... ، أنه إذا كفّ العدوان وترك المسلمين وما لهم من ممالك ، سكنت الدهماء ، وحقنت الدماء ، وما أحقه بأن لا ينه عن خلق ويأتي مثله ، ولا يأمر ببرّ وينسي فعله " [٦] .

---

(١) السلوك ، ج ١ ، ق ٣ : ١٠٣١ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٣ : ١٠٣١ .

(٣) ديوان المتنبي ، ص ٤٠٤ .

(٤) السلوك ، ج ١ ، ق ٣ : ١٠٣٨ .

(٥) الأعشى ، ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس ، تحقيق د . محمد محمد حسين ، مؤسسة الرسالة ، ط ٧ ، ١٩٨٣ ، ص ٦ .

(٦) السلوك ، ج ١ ، ق ٣ : ٩٨٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو تأثر الكاتب واضحٌ بقول الشاعر أبي الأسود الدُولي :

لا تنهَ عن خُلقٍ وتأتي مثلَهُ عارٌ عليك إذا فَعَلْتَ عظيم [١]

ومن نسخة عهد كتبه فخر الدين ابراهيم بن لقمان للظاهر بيبرس : " ومما يجب ايضاً تقديم ذكره أمر الجهاد الذي أضحى على الأمة فرضاً ، وهو العمل الذي يرجعُ به مسودُّ الصحائف مبيضاً ، وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم ، وأعد لهم عنده المقام الكريم ، .... " [٢] .

ويبدو تأثر الكاتب واضح بقول الشاعر أبي تمام :

بيضُ الصفائحِ لا سودُ الصحائفِ في متونهنَّ جلاءُ الشكِ والرِّيبِ [٣]

التاثر بالمثل واقوال الآخرين

لقد استعان الكتاب في هذا العصر بالمثل وتأثروا به سواء أكان نثراً أم شعراً ، وقد أشار القلقشندي إلى أهمية المثل بقوله : " أعلم أن الكاتب يحتاج إلى النظر في كتب الأمثال الواردة عن العرب نثراً أو نظماً وانظر في الكتب المصنفة في ذلك كأمثال الميداني والمفضل ابن سلمى الضبي وحمزة الأصفهاني وغيرهم .. " [٤] .

---

(١) الدولي ، ديوان ابي الأسود الدولي ، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ، منشورات مكتبة النهضة ، بغداد ، ط ٢ ، ١٩٦٤ ، ص ١٣٠ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ١٠ : ١١٩ .

(٣) أبو تمام ، ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد عبدة عزام ، دار المعارف ، ١٩٦٤ ، ص ٤٠ .

(٤) صبح الأعشى ، ج ١ : ٣٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمطلع على رسائل هذا العصر يلاحظ تأثر الكتاب بالمثل بشكل كبير ، أما المدقق في رسائل صدى الغزو المغولي فيلاحظ الأثر القليل في استعانتهم بالمثل ، وعند توثيق بعض هذه الأمثلة من مصادرها ، فوجئت بأنني ما وجدتها في كتب الأمثال المشهورة مثل كتاب الميداني أو الضبي ، لذا فلم أدونها هنا لعدم استطاعتي توثيقها من مصادرها .

ومع ذلك فقلة تأثر كتاب هذه الفترة في موضوع الغزو المغولي بالمثل ، يعود إلى إنشغال الكتاب بكتابة المراسلات بين المسلمين والمغول ، والحث على الجهاد ، ووصف المعارك ، اعتمادهم الرئيسي على القرآن الكريم والحديث الشريف بالدرجة الأولى ، ثم يليه الشعر ، مما جعلهم يكتفون بالاعتماد على الشواهد الأقوى والأبلغ ... والله أعلم .

ومن الأمثلة التي لاحظتها ، من رسالة ياقوت الحموي إلى القاضي جمال الدين أبي الحسن الشيباني القفطي ، يصف فيها حاله وما جرى له مع التتار ، إذ يقول " ..... ولم أزل مع الزمان في تفنيد وعتاب ، حتى رضيت من الغنيمة بالإياب ، والمملوك مع ذلك يدافع الأيام ويرجيها ، ... غير راضٍ بذلك الشمل ، ولكن مكره أخاك لابطل ... " [١] .

وقد تأثر الحموي بالمثل العربي المشهورة " مكره أخوك لابطل " [٢]

وقال [٣] محيي الدين بن عبدالظاهر في وصف معركة قيسارية الروم

---

(١) ابن خلكان ، ج ٥ : ١٨٤ .

(٢) ابو الفضل احمد بن محمد احمد بن ابراهيم الميداني ، مجمع الأمثال ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار الجيل ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٧ ، ج ٢ : ٢٤١ ، امثال العرب ١١٢ ، الوسيط في الأمثال ، ١٥٦ يضرب لمن يُحمل على ما ليس من شانه) .

(٣) صبح الأعشى ، ج ١٤ : ١٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وانتزاعها من التتار : " ورحلنا في يوم الخميس ثالث عشرين من ذي القعدة ، فعارضنا بها .... ، نهر يعرف نهر - قزل صو ... ، وهذا النهر صعب المخاض .. لا يجد السالك من أوحال حافتيْه إلا صعيداً زلقا ؛ فوقف مولانا السلطان بنفسه ، وجرد سيفه بيده ، ..... ووقف راجلاً يُعبر الناس أولاً فأولاً .. ولم يبق إلا المرور ، ركب فرسه وعبر الماء والألسنة له داعية ، وعليه من الله واقية باقية ، فنزل في واد هناك به " مرعى" ولا كالسعدان " ، " ومرأى" ولا كشعب بوّان" [١] .

أقـوال الآخريـن :

لقد تأثر الكُتاب بكتابات السابقين ؛ أمثال القاضي الفاضل وغيره في أدب هذه الفترة ، ولكنني ما عثرت على شواهد كثيرة في النثر الخاص بالغزو المغولي، وأظن أن السبب في ذلك يعود إلى قلة المصادر أو ضياع جزء كبير منها التي ترصد أدب هذه الفترة ولا سيّما النثر .

تأثر محيي الدين بن عبدالظاهر بالكاتب القاضي الفاضل في وصفه للمنجنيق احدى أدوات المعركة إذ يقول ابن عبدالظاهر : " وتقدم اليها المنجنيق فكأن بين ثنايا الشرفات سواكها ، وامتدت حباله فكأنه لصيد القلاع أشراكها .."[٢].

وقد تأثر في هذا القول بكلام القاضي الفاضل " وقدم المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصون عصيُّها وحبالها ، أوتر لهم قسيها التي تضرب فلا تفارقها سهامها ، ولا يفارق سهامها نصالُها ، فصافحت السور بأكنافه ، فإذا سهمها في

---

(١) مثلان يضربان للشيئين لهما فضل ولكن احدهما أفضل الميداني ٢/٢٧٦ ، ٢٧٧ .

(٢) ابن نباته المصري ، مطلع الفوائد ومجمع الفرائد ، تحقيق د . عمر موسى باشا ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٧٢ ، ص ٤٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثنايا شرفاتها سِواك " [١] .

ومن الذين تأثر الكتاب بهم الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، إذ يقول ابن الكازروني يصف أحوال أهل بغداد بعد احتلال التتار لمدينة بغداد [٢] : ".. فوقع الفشل وعم الكسل وساء العمل وكثر الزلل ، وبطل التدبير وحار الوزير : فنزل بهم العدو حين احتلوا و" ما غزي قومٌ في عقر دارهم إلاّ ذلوا " [٣] .

ويتأثر كاتب رد جواب السلطان الناصر على كتاب ايلخان غازان بأقوال سيدنا علي كرم الله وجهه - إذ يقول [٤] " ..... ، وإن جنحوا للسلم فاجنح لها كيف والكتاب بعنوانه ، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - يقول " ما أضمر الانسان شيئاً إلا ظهر في صفحات وجهه وفلتات لسانه " [٥] .

الصورة الفنية

لقد اعتنى الكتاب بتصوير الانتصارات ، وأحداث المعارك وتصوير الحصون والمدن قبل الغزو وبعده ، وكذلك اعتنوا بتصوير البطل المسلم المجاهد ، وتصوير العدو المخذول والسلاح .

يصور الكاتب القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر فرحة المسلمين بانتصارهم على التتار في وقعة حمص ٦٨٠هـ ، حيث سُرّ الناس بها وعاد الإسلام

---

(١) صبح الأعشى ، ٨ : ٢٨٧ .

(٢) مقامة في قواعد بغداد ، ص ٣٠ .

(٣) الإمام علي بن أبي طالب ، نهج البلاغة ، شرح الشيخ محمد عبده ، دار الكتاب العربي ، سوريا ، ج ١ ، ٦٨ .

(٤) السلوك ، ج ١ ، ق ١ : ١٠١٩ .

(٥) نهج البلاغة ، ج ٤ : ٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بها شاباً فتياً ، ويعتمد الكاتب على فن المقابلة حيث يشير إلى حال الناس قبل الانتصار وبعده : " ..... وهي النعمة التي عاد بها عمر الإسلام فتياً وكوكب سعده مضياً ويوم نصره بدرياً وأصبح بها أهل التهايم والنجود في هناء وملايكة السماء في شكر لسلطان الإسلام ودعاء وكادت قبلها قلوب الجبال أن تتصدع ودموع السحايب أن تتشرع وأكباد البيد أن تتقطع .. " (١) .

كما يُلاحظ في الصورة السابقة اعتماد الكاتب على بعض الألفاظ ذات الدلالات القوية مثل :" تتصدع ، تتقطع التي تُسعف الكاتب في تحقيق الهدف من الصورة البيانية ، وهو بيان صعوبة الحال آنذاك ، والصورة الفنية السابقة صورة مستلهمة من البيئة الطبيعية .

ويصور الكاتب علاء الدين علي بن عبدالظاهر مرج الصُّفر قائلاً : " .. ، واستقر بها الملك في مهاد السكون بعد القلق ، وتبدلت بها الملة الإسلامية الأمن بعد الفرق ، وأضحى بها وجه الإسلام سافراً بعد تقطيبه ، وطلع بها بدر السرور كاملاً بعد مغيبة (٢) .

يُلاحظ في الصورة الفنية السابقة اتكاء الكاتب على فن الطباق والمقابلة .

ويصور صاحب كنز الدرر مرج الصُّفر تصويراً فنياً يركز الكاتب فيه على عنصري اللون والحركة إذ يقول : " ثم التقى الجمعان ، وعمل الضرب والطعان ، وصبر الشجاع وفرّ الجبان ، وعمل الصارم وليمته في الجماجم ، وخطر الأسمر ، يميس في لباسه الأحمر ، وغنى الحسام وانقطع الكلام لمّا زادت الكلام ، ورقصت الخيول على دقات الطبول ، وهاجت بلابل الشجعان ، ... والمهند قد أطفق مسحاً

---

(١) تاريخ ابن الفرات ، م٧ : ٢٢٣ .

(٢) السلوك ، ج ١ ، ق ٢ : ١٠٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالسوق والأعناق ... " [١] .

ويصور الكاتب علاء الدين علي بن عبدالظاهر قوة ومنعة جيش المسلمين ؛ هذه الجيوش الصلبة القوية كالجبال إذ يقول : " ... ، والجيوش المنصورة قد أرهفت حد سيوفها ، وأشرعت أسنة حتوفها ، وهي تسير كالجبال ، وتبعث كالصدى ما يُرهب من طيف الخيال ... " [٢] .

يُلاحظ من الصورة السابقة اعتماد الكاتب على الطبيعة في رسم ملامحها .

ويصور كاتب رسالة جواب الظاهر إلى تيمورلنك قوة جيش المسلمين الذي أصبح كالجزار لا يهمه كمية اللحم الذي يقطع أو الضحايا التي تُذبح ، هذا الجيش الذي يتمنى الموت ولا يبالي بشيء ، إذ يقول : " ... وأما قولكم قلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال ، فالقصاب لا يبالي بكثرة الغنم ، وكثير الحطب يفنيه القليل من الضرم ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، .. واعلموا أن هجوم المنية عندنا غاية الأمنية ..... " [٣] .

يُلاحظ اعتماد الكاتب على ثقافته الدينية في رسم صورته الفنية السابقة .

والبطل قوي الهمة عظيم العزيمة ، كما صوره محيي الدين بن عبدالظاهر في وقعة حمص إذ يقول ، " وثب لهم مولانا وثبة شيبت منهم الوليد ... " [٤] .

وصور الكتاب البطل بصور عديدة فهو القمر المكتمل المضيء ، كما يقول علاء الدين علي بن عبدالظاهر في مدح الملك الناصر بعد انتصاره على المغول سنة

---

(١) كنز الدرر ، ص ٨٥ .

(٢) السلوك ، ج ١ ، ق ٣ : ١٠٢٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٣ : ٨٠٦ .

(٤) تاريخ ابن الفرات ، م ٢٢٤/٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٧٠٢هـ " .... والسلطان بين عساكره كالبدر بين النجوم .... " [١] .

وصور الكتاب الأسلحة ، متكئين على التجسيد والتشخيص ، فالسيوف تقسم أنها تستقر في الرؤوس والأسنة عطشى لا تُروى إلا من دماء العدو وعاهدت السهام نفسها باتخاذ نحور الأعداء مقراً لها ، كما يقول علاء الدين علي بن عبدالظاهر : " هذا والسيوف قد فارقت الأغماد : وأقسمت أنها لا تقر إلا في الرؤوس والأسنة قد أشرعت وألت أنها لا يُروى ظمؤها إلا من دماء النفوس ، والسهام قد التزمت أنها لا تتخذ كنائنها إلا من النحور ، ولا تتعوض عن حنايا القسي إلا بحنايا الأضالع ، أو لترفعها لا تحل إلا في الصدور .. " [٢]

لقد اعتمد الكاتب في بناء صورته الفنية - كما يُلاحظ - على رسم صور جزئية مفردة ، ليخرج بصورة مركبة مستعيناً بالفنون البيانية من استعارة وتشبيه ، مستخدماً المحسنات البديعية كالسجع ، وقد صوّر الكُتاب العدو المغولي بصور عديدة منها ما صوره ابن عبدالظاهر عن أعمالهم القاسية البشعة إذ يقول : " فملأوا الأقطار رعباً والبلاد سلباً ، وأتوا المنازل كما تأتي الزلازل ، وطلعوا على بلاد الإسلام طلوع القضاء النازل .. " [٣] .

وصورهم الحلبي بالمخذولين المقبلين كحبات الرمال إذ يقول : " .. وأن التتار المخذولين أقبلوا كالرمال واصطفوا كالجبال وتدفقوا كالبحار الزواخر وتوالوا كالأمواج التي لا يُعرف لها الأول من الآخر ... " [٤] .

---

(١) السلوك ، ج ١ ، ق ٣ : ١٠٣٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٣ : ١٠٣٠ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ، م ٢٢٣/٧ ، انظر ايضاً، صبح الأعشى ، ج ١٦٨/١٤ .

(٤) حسن التوسل ، ٣٣٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو اعتماد الحلبي في رسم ملامح صورته الفنية السابقة على عنصر البيئة البرية والبحرية اعتماداً جلياً وقد صور محيي بن عبدالظاهر خوف المغول تصويراً دقيقاً ، إذ يقول : " .. ولما أذل الله ببأسها طوائف التتار ... وجعل حظ قلوبهم الوجع من الخوف ونصيب وجوههم الوجم وأخلى الله من نسورهم الأوكار ومن أسودهم الأجم ، وقصرت بهم هممهم حتى صاروا يخافون الصبح إذا هجم والظن إذا رجم ... " [١] .

كما صور الكتاب حال الأسرى والقتلى من المغول ، كما فعل الشهاب محمود في رسالة الناصر إلى غازان بعد مرج الصُّفر سنة ٧٠٢هـ إذ يقول : " فلو رأيت أيها الملك عساكرك - إما ذليلاً أسيراً أو جريحاً عفيراً (وكان يوماً على الكافرين عسيراً) [٢] ، يوم تضاعف فيه المقتول والمأسور ، وتصاحب فيه الذئاب والنسور ، وعادوا أصحابك [٣] طعاماً للذياب .... " [٤] .

وقد حط الحلبي من قدر ومكانة أسرى المغول ، فهم منساقون في أعناقهم القيود - وقد جمع الحلبي بين صورة أسرى المغول وجيش المسلمين ؛ ليرفع من شأن المسلمين فهم الأسود التي تجر الكلاب إذ يقول : " أما الرجال ففي أعناقهم الحبال والسلاسل والأغلال ، فعادت مغلك كالكلاب في أيدي أسود الغاب .. " [٥] .

وقد صور الكتاب المدن ومنعة الحصون والقلاع وقوتها إذ صور محيي الدين ابن عبدالظاهر طرابلس بالمرأة المحصنة التي تأبى على الكثير ، المرأة المزينة

---

(١) صبح الأعشى ، ج ٧ /٣٩٣ ، انظر ايضاً ، ج ١٤/١٦٤ .

(٢) الفرقان : ٢٦ .

(٣) هكذا وردت في النص والأصح نحوياً . (وعاد أصحابك) .

(٤) كنز الدرر : ١٢١ .

(٥) المصدر نفسه : ١٢٢ ، تاريخ ابن الفرات ، م ٧ / ٢٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المحاطة بالخدم ، رداؤها البحر وغطاؤها السحاب إذ يقول : " وكلما مرت شمخت بأنفها وتأنقت في تحسين منازه منازهها وتزيين ريحانها وعصفها ومرت وهي لا تغازل ملكاً بطرفها ، .... إذ البحر لها جلباب والسحاب لها خمار .. " [١] .

لقد كانت الصوة الفنية السابقة صورة مستلهمة من واقع المرأة المسلمة آنذاك ، المرأة المحجبة الصلبة ، وقد استعان الكاتب في رسم صورته بالاتكاء على دلالات لغوية تدل على العزة والاحتشام كقولة : شمخت ، جلباب ، خمار .

---

(١) صبح الأعشى ، ج ٧ : ٣٩٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمـــــة

لقد زحف خطر المغول إلى العالم الإسلامي ، وجاء يهدد بقوته وغروره وتجبره ، إذ دمر العمران ، وخرب الأبنية ، وسفك الدماء ، وقتل الأبرياء ، ونهب الأموال .... ، وقد وجدت هذه الأحداث صدى كبيراً لدى الكتاب والأدباء ، إذ رصد النثر الفني العربي معظم الأحداث التي دارت بين المسلمين والمغول من وقعات ومراسلات ، فكان النثر دلائل واشارات ترصد أحداث التاريخ ، مثال ذلك ما قاله ابن لقمان مشيراً إلى ما حل بالخلافة : " ... وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان ، وأذهبت ما كان لها من محاسن .. " [١] .

وقد سجل النثر أسباب غزو المغول ، ولكن اختلفت الآراء ما بين كاتب وآخر، إذ عدّها ياقوت الحموي غضباً من الله [٢] ، بالرغم من أن " أهل تلك البلاد أهل دين متين ، وصلاح مبين ، ونسك وعبادة ، والإسلام فيهم غض المجنى ، حلو المعنى ، يحفظون حدوده ، ويلتزمون شروطه ، لم تظهر فيهم بدعة استحقوا بها العذاب والجلاء ، ولكن يفعل الله بعباده ما يشاء ، ويحكم بما يريد " كما يقول ياقوت الحموي " [٣] .

ويرى ابن الكازروني أنّ الغزو المغولي غضب من الله ، ولكن أهل تلك البلاد: " انتهكوا المحارم ، وارتكبوا المآثم ، وأصروا على الفجور وسفك الخمور ، ولا جرم أن العرش اهتز غضباً ... " [٤] .

---

(١) صبح الأعشى ، ج ١٠ : ١١٦ .

(٢) انظر مقال الغزو والمغولي كما صوره ياقوت الحموي ، بشار عواد معروف ، ١٩٦٥ آب ، مجلة الاقلام س ١، ج ١٢ ، ص ٥١ .

(٣) معجم البلدان ، ج ١ : ١٧٩ .

(٤) مقامة في قواعد بغداد : ٢٨ ، انظر رأي ابن خلدون م ٥ : ٣٧١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمطلع على مراسلات ملوك المسلمين وملوك المغول ، يُلاحظ أنهم اتبعوا نمطاً ثابتاً في المراسلات السلطانية " واتخذوا لأنفسهم كتاباً ينشئون رسائلهم إلى ملوك مصر وأشباههم بالعربية ، أو ينشئونها بالمغولية ثم تترجم إلى العربية بنفس الأسلوب المتبع في مراسلات ديوان الإنشاء " [١] كما يقول محمود رزق سليم.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه !؟ هل هؤلاء الكتاب الذين يكتبون لملوك التتار هم أنفسهم بعد فترة زمنية طويلة ؟ أم يكتبون بنفس الأسلوب ؟ فالمطلع على رسالة هولاكو إلى قطز سنة ٦٥٨هـ ، ورسالة تيمورلنك إلى الظاهر برقوق سنة ٧٩٦هـ ، يقع في حَيْرة من أمره ، وتثيره الشكوك والدهشة ؟

يقول هولاكو في رسالته إلى قطز : " ... إنّا نحن جند الله في أرضه خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من حل به غضبه ، فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم ، وأسلموا الينا أمركم ، قبل أن ينكشف الغطاء ، فتندموا ويعود عليكم الخطأ ، فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكى ، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد ، وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب ، وعلينا الطلب ... " [٢] .

ويهدد تيمورلنك الظاهر برقوق بنفس أسلوب كاتب الرسالة السابقة ، بل بنفس العبارات والتراكيب إذ يقول : "..... اعلموا أنّا جند الله مخلوقون من سخطه ، مسلطون على من حل عليه غضبه ، لا نرق لشاكي ، ولا نرحم باكي ، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا .. فقد خربنا البلاد ، وأيتمنا الأولاد ، وأظهرنا في الأرض الفساد ... " [٣] .

---

(١) عصر سلاطين المماليك ، م ٥ ، ق ١ ، ج٣ ، ص ١١٤ .

(٢) السلوك ، ج ١ : ٤٢٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٨٠٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي جزء آخر من رسالة هولاكو إلى السلطان قطز يقول : " ... فأي أرض تؤيكم ، وأي طريق تنجيكم ؟ فما من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال ، فالحصون لدينا لا تمنع ، والعساكر لقتالنا لا تنفع ، ودعاؤكم علينا لايُسمع ، فإنكم أكلتم الحرام .. فمن طلب حربنا ندم ، ومن قصد أماننا سلم ، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم ، فلكم مالنا وعليكم ما علينا ، وإن خالفتم هلكتم ، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم ، فقد حذر من أنذر ، وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة ، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة ، وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة والأحكام المدبرة ، فكثير كم عندنا قليل ، وعزيزكم عندنا ذليل ... " [١] .

ويهدد تيمور الظاهر برقوق مرة أخرى قائلاً : " .. فخيولنا سوابق ، ورماحنا خوارق ، وأسنتنا بوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وجيوشنا كعدد الرمال ، ونحن أبطال ، وأقيال ، وملكنا لا يرام ، وجارنا لا يضام ، ... ، فمن سالمنا سلم ، ومن رام حربنا ندم ،... ، وان أنتم خالفتم وعلى بغيكم تماديتم فلا تلوموا إلا أنفسكم ، فالحصون منا ، مع تشييدها لا تمنع ، والمدائن بشدتها لقتالنا لا ترد ولا تنفع ودعاؤكم علينا لا يستجاب فينا ، ولا يسمع ، وكيف يسمع الله دعاءكم وقد أكلتم الحرام ... وقد غلب عندكم أننا كفرة ، وثبت عندنا أنكم والله الكفرة الفجرة ، وقد سلطنا عليكم إله له أمور مقدرة ، وأحكام مدبرة ، فعزيزكم عندنا ذليل وكثيركم لدينا قليل ... " [٢] .

---

(١) السلوك ، ج ١ : ٤٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٠٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقودنا هذا التشابه الكبير بين هاتين الرسالتين السابقتين إلى أمرين :

١ - أنّ هناك خطأً واضحاً من المؤرخين في نقل هذه الرسائل في كتبهم ، من حيث نسبة الرسالة إلى صاحبها أو مُرسلها .

٢ - أو أن هناك سرقة أدبية واضحة من قبل كتاب ملوك التتار في عهد تيمورلنك - والله أعلم - .

وقد أثرّ الغزو المغولي في النثر ، ولا سيما في الرسائل الجهادية ، إذ كان كل من يُكتب له كتاباً معيناً - سواء أكان تقليد وزارة أم كفالة سلطنة أم نسخة توقيع بقضاء الشافعية مثلاً - كان في نظر الكتاب بطلاً مسؤولاً عن أمته ، حيث يذكّر الكاتب بالجهاد ، واقامة فرضه ، وتنظيم الصفوف للقتال ، والحثّ على الفتوحات ، ومن هنا كانت الرسالة الجهادية أثراً واضحاً نتيجة العدوان المغولي ، وإن وُجدت قبل ذلك إثر العدوان الصليبي .

كما أثّر الغزو المغولي في أساليب الكتاب من حيث التنوع في التعبير عن الحروب ، كما فعل ابن الكازروني في مقامته (مقامة في قواعد بغداد) إذ يهاجر الكاتب في خياله إلى بغداد ويصف ما حلّ بها من خراب نتيجة الغزو المغولي بعد أن كانت رائقة الأهواء ، جميلة المنظر .

وختاماً ، وبعد هذه الدراسة المتواضعة ، يثبت البحث أن النثر الفني العربي قد واكب أحداث الغزو المغولي ، منذ دخول التتر العالم الإسلامي ، وسقوط بغداد ، وحتى قدوم تيمورلنك ، مسجلاً الظروف السياسية وغيرها آنذاك، مبرزاً عدداً كبيراً من الكتاب ، رافعاً لقيمة الأدب في هذا العصر الذي طالما ظُلم ووصُف بالانحطاط .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

* **المصادر المخطوطة :**

- ابن حبيب : بدر الدين الحسن بن عمر بن حبيب الحلبي (٧٧٩هـ)

درة الأسلاك في دولة الأتراك . ميكروفيلم في مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية ، شريط رقم ٥٣٩ .

- الدواداري : ركن الدين بيبرس (٧٢٥هـ) .

زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، ميكروفيلم في مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية ، شريط رقم ٢٠ .

- الذهبي : أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (٧٤٨هـ)

تاريخ الإسلام . ميكروفيلم في مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية ، شريط رقم ٥٣٧ .

- الصفدي : صلاح الدين خليل بن أيبك (٧٦٤هـ)

التذكرة الصفدية ، مصور عن سشربتي رقم ٥١٧٨ ، ٣٨٦ المحفوظ في مركز الوثائق بالجامعة الأردنية .

- اختيار الاختيار ، ميكروفيلم في مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية ، شريطة رقم ٥١٨٣ .

* **المصادر المطبوعة :**

- ابن الأثير : ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد الجزري (٦٣٧هـ)

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق د . أحمد الحوفي وآخر ، ط ١، مطبعة الرسالة ، ١٩٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم (٦٣٠هـ)

الكامل في التاريخ ، مراجعة د . محمد الدقاق ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧ .

- ابن الأثير الحلبي ، نجم الدين أحمد بن إسماعيل الشافعي (٨٣٧هـ)

جوهر الكنز ، تحقيق د . محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، الاسكندرية .

- أحمد بن حنبل ، أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل (٢٤١هـ)

مسند الإمام أحمد بن حنبل ، دار صادر ، بيروت .

- الأصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسين (٣٥٦هـ)

الأغاني ، مصور عن طبعة دار الكتب ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

- الأعشى : ميمون بن قيس (٧هـ)

ديوان الأعشى الكبير ، تحقيق د . محمد محمد حسين ، ط ٧ ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٣ .

- امرؤ القيس ، حندج بن حجر (٨٠هـ)

ديوان امرىء القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط ٤ ، دار المعارف، مصر .

- البخاري : أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن إبراهيم البخاري الجعفي

صحيح البخاري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٢ .

- ابن تغري بردي : جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (٨٧٤هـ)

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ط ١ ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ١٩٣٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- النجوم الزاهرة ، علّق عليه محمد حسين شمس الدين ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٢ .

- نفسه ، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، حققه د. محمد محمد أمين ، تقديم د. سعيد عبدالفتاح عاشور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤ .

- ابن بطوطة : أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللواتي (٧٧٩هـ)

تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، ط ١ ، طبع بالمطبعة الأزهرية ، مصر ١٩٢٨ .

- البغدادي : صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق (٧٣٩هـ)

مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، ط ٢ ، دار الجيل بيروت ، ١٩٩٢ .

- بيبرس المنصوري : ركن الدين بيبرس المنصوري (٧٢٥هـ)

التحفة الملوكية في الدولة التركية ، نشر د . عبد الحميد صالح حمدان ، ط ١ ، الإدارة المصرية اللبنانية ، ١٩٨٧ .

- الترمذي : أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (٢٩٧هـ)

الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ، تحقيق ابراهيم عطوة عوض ، دار احياء التراث ، بيروت .

- أبو تمام : حبيب بن أوس الطائي (٢٣١هـ)

ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف ، ١٩٦٤ .

- ابن تيمية : تقي الدين أحمد بن عبد الحليم (٧٢٨هـ)

الرسالة القبرصية ، ط ٢ ، مكتبة أنصار السنة المحمدية ١٩٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- نفسه :

مجموعة فتاوي ابن تيمية ، مطبعة كردستان العلمية ، القاهرة ، ١٣٢٩هـ .

- نفسه :

رسالة إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار ، نشرها د . صلاح الدين المنجد ، ط ١ ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ١٩٧٦ .

- الجوزي : أبو المظفر يوسف بن قزاغلي (٦٥٤هـ)

مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، تحقيق د . احسان عباس ، ط ١ ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٨٥ .

- ابن حبيب : الحسن بن محمد بن الحسن عمر بن حبيب (٧٧٩هـ)

تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، تحقيق د . محمد محمد أمين و د . سعيد عبد الفتاح عاشور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٢ .

- الحلبي : شهاب الدين أبو الثناء محمود (٧٢٥هـ)

حسن التوسل في صناعة الترسل ، تحقيق أكرم عثمان يوسف ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٨٠ .

- الحموي : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي (٦٢٦هـ)

معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت .

- ابن حجة الحموي : تقي الدين أبو بكر بن علي الأزراري (٨٣٧هـ)

خزانة الأدب وغاية الأرب ، مطبعة بولاق ١٢٩٩هـ ١٨٧٤م.

- الحميري : محمد بن عبد المنعم الحميري

الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق د . احسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الحنفي : محمد بن أحمد بن إياس (٩٣٠هـ)

بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٣ .

- ابن العماد الحنبلي : أبو الفلاح عبد الحي (١٠٨٩هـ)

شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمد والأرناؤوط ، ط ١ ، مكتبة ابن كثير ، دمشق ، بيروت ، ١٩٩١ .

- ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (٨٠٨هـ)

تاريخ ابن خلدون ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت .

- ابن خلكان : شمس الدين أحمد بن محمد بن أبو بكر (٦٨١هـ)

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق د . احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٧ .

- دائرة المعارف الإسلامية .

انتشارات جهان .

- أبو داود : أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٧٥هـ)

سنن أبي داود ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ١٩٨٨ .

- الدواداري : أبو بكر عبد الله بن أيبك

كنز الدرر وجامع الغرر ، تحقيق هانس روبرت رويمر ، اصدار قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألماني للآثار بالقاهرة ، ١٩٦٠ .

- الدؤلي : أبو الأسود ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل

ديوان أبي الأسود الدؤلي ، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ، ط ٢ ، منشورات مكتبة النهضة ، بغداد ، ١٩٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الذبياني : النابغة الذيباني : زياد بن معاوية بن جنباب (١٨هـ)

ديوان النابغة الذيباني ، دار صادر ، بيروت .

- الذهبي : أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (٧٤٨هـ) العبر في خبر من غبر ، تحقيق د . صلاح الدين المنجد ، وزارة الارشاد والأنباء ، الكويت ، ١٩٦٦ .

- نفسه :

ذيول العبر في خبر من ذهب ، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

- الرازي

نهاية الايجاز في دراية الأعجاز ، تحقيق د . بكري شيخ أمين ، ط ١ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٥ .

- السلامي : تقي الدين أبي المعالي محمد بن رافع السلامي (٧٧٤هـ)

الوفيات ، تحقيق صالح مهدي عباس ، أشرف عليه د. بشار عواد معروف ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ١٩٨٢ .

- السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ)

حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، مطبعة الموسوعات ، مصر .

- نفسه :

تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى القاهرة ، ١٩٥٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- أبو شامة : شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي (٦٦٥هـ)

الذيل على الروضتين ، تعريف محمد زاهد الكوثري ، ط ٢ ، دار الجيل بيروت ، ١٩٧٤ .

- ابن شداد : عز الدين أبو عبيد الله محمد بن علي (٦٨٤هـ)

الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق د . سامي الدهان ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ، ١٩٥٣.

- نفسه :

تاريخ الملك الظاهر ، تحقيق أحمد حطيط ، دار النشر : فرانز شتيز بفيسادث ، ١٩٨٣ .

- الشجري : الإمام المرشديحي بن الحسين الشجري .

الآمالي الشهيرة بالآمالي الخميسية .

- ابن صصري : محمد بن محمد .

الدرة المضيئة في الدولة الظاهرة ، تحقيق وترجمة ونشر : د . وليم ، م بريز، مطبعة جامعة كاليفورنيا ، بركلي ،١٩٦٣ .

- الصفدي : صلاح الدين خليل بن أيبك (٧٦٤هـ)

الوافي بالوفيات ، فرانز شتايز بفيسادث ، النشرات الإسلامية ، جمعية المستشرقين الألمانية ، طبع في دار صادر باعتناء س. د. رينع بيروت ،١٩٨٢.

- ابن الصيرفي : نور الدين علي بن داود الجوهري (٩٠٠هـ)

نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ، تحقيق د . حسن حبشي ، وزارة الثقافة ، القاهرة ،١٩٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن الصيرفي :

قانون ديوان الرسائل ، مطبعة الواعظ ، مصر ، ١٩٥١ .

- الضبي : المفضل بن محمد الضبي (١٦٨هـ)

أمثال العرب ، قدمه د . احسان عباس ، ط ١ ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٩٨١ .

- الطباخ : محمد راغب الطباخ (١٣٧٠هـ)

أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، تعليق محمد كمال ، ط ٢ ، دار القلم العربي ، حلب ، ١٩٨٩ .

- ابن عبد الظاهر : محيي الدين بن عبد الظاهر : عبد الله بن عبد الظاهر (٦٩٢هـ)

الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق عبد العزيز الخويطر ، الرياض ، ١٩٧٦ .

- نفسه :

تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، تحقيق د . مراد كامل مراجعة محمد علي النجار ، ط ١ ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦١ .

- ابن العبري : أبو الفرج نمر غريغوريوس الملطي (٦٨٥هـ)

تاريخ مختصر الدول ، تصحيح وفهرسة الأب أنطون صالحاني اليسوعي ، دار المسيرة ، بيروت .

- ابن عربشاه : أحمد بن محمد بن عبد الله (٨٥٤هـ)

عجائب المقدور في أخبار تيمور ، المطبعة العثمانية ، مصر ، ١٣٠٥هـ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- العسقلاني : شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر (٨٥٢هـ)

فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي،دار الفكر.

- نفسه

الدرر الكافية في أعيان المائة الثامنة ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، دار الكتب الحديثة القاهرة ، ١٩٦٦ .

- العسكري : أبو هلال العسكري (٣٩٥هـ)

كتاب الصناعتين ، تحقيق د . مفيد قميحة ، ط ٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٤ .

- عطا حسني بك

حُلى الأيام في خلفاء الإسلام ، مصر ، ١٣٢٧

- علي بن أبي طالب

نهج البلاغة ، شرح السيد محمد عبده ، دار الكتاب العربي ، سوريا

- علي بن خلف

مواد البيان ، تحقيق حسين عبد اللطيف ، جامعة الفاتح ، طرابلس ، ١٩٨٢ .

- العيني : محمود بن أحمد (٨٥٥هـ)

عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، تحقيق د . محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ .

- ابن قاضي شهبة ، تقي الدين أبي بكر بن أحمد بن قاضي شهبة الأسدي الدمشقي (٨٥١هـ)

تاريخ ابن قاضي شهبة ، تحقيق عدنان درويش ، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ، ١٩٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- القرماني :

أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، بيروت ، عالم الكتب .

- القزويني : الخطيب القزويني

الايضاح في علوم البلاغة ، مراجعة الشيخ بهيج غزاوي ، ط ١ ، دار احياء العلوم ، بيروت ، ١٩٨٨ .

- القلقشندي : أبو العباس أحمد (٨٢١هـ)

صبح الأعشى في صناعة الانشا ، وزارة الثقافة والارشاد القومي

صبح الأعشى : تحقيق محمد حسين شمس الدين ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٩ .

- ابن رشيق القيرواني : أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (٤٦٣هـ)

العمدة في صناعة الشعر نقده ، تحقيق د . مفيد محمد قميحة ، ط ١ ، دار العلمية ، بيروت ١٩٨٣ .

- القيسراني :

النور اللائح والدر الصائح في اصطفاء مولانا السلطان صالح ، دار الانشاء للصحافة والطباعة والنشر ، طرابلس ، ١٩٨٢ .

- أبو الفداء : اسماعيل بن علي بن محمود (٧٣٢هـ)

المختصر في أخبار البشر ، ط ١ ، المطبعة الحسينية .

- ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (٨٠٧هـ)

تاريخ ابن الفرات ، تحقيق د . قسطنطين زريق ، منشورات الجامعة الأميركية ، بيروت .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن الفوطي : كمال الدين عبد الرزاق البغدادي (٧٢٣هـ)

الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابقة ، المكتبة العربية ، بغداد ، ١٣٥١ .

- الكازروني : ظهير الدين علي بن محمد (٦٩٧هـ)

مقامة في قواعد بغداد ، تحقيق ، كوركيس عواد ميخائيل مراد ، مطبعة الارشاد ، بغداد ١٩٦٢ .

- الكتبي : محمد بن شاكر (٧٦٤هـ)

عيون التواريخ ، تحقيق د . فيصل السامر ونبيلة داود ، وزارة الثقافة والاعلام .

- نفسه :

فوات الوفيات ، تحقيق د . احسان عباس ، دار صادر ، بيروت .

- ابن كثير : أبو الفداء اسماعيل بن عمر الحافظ بن كثير الدمشقي ، البداية والنهاية ، تدقيق د . احمد أبو ملحم وأخرون ، ط ٣ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧ .

- البداية والنهاية : تحقيق أحمد عبد الوهاب ، ط ١ ، دار الحديث القاهرة ، ١٩٩٢ .

- ابن ماجه : ابن ماجه القزويني

صحيح سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، ط ١ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٦ .

- المتنبي : أبو الطيب أحمد بن الحسين (٣٥٤هـ)

العرُف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب المتنبي ، ط٢ ، دار القلم ، بيروت.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- محمد كرد علي :

خطط الشام ، ط ٣ ، مكتبة النوري ، دمشق ، ١٩٨٣

خطط الشام : المطبعة الحديثة بدمشق ، ١٩٢٥ .

- مسلم : أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري (٢٦١هـ)

صحيح مسلم بشرح النووي ، ط ٣ ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٢٩ .

- المصري : ابن نباته المصري

مطلع الفوائد ومجمع الفرائد ، تحقيق د . عمر موسى باشا ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٧٢ .

- المقدسي :

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ط ٣ ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩١ .

- المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (٨٤٥هـ)

السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر محمد مصطفى زيادة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٩ .

- نفسه :

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، مكتبة المثنى ، بغداد .

- ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (٧١١هـ)

لسان العرب ، دار صادر ، بيروت .

- الميداني : أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن ابراهيم الميداني

مجمع الأمثال ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط ٢ ، دار الجيل ، بيروت، ١٩٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- النسائي :

سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي ، تحقيق : عبد الفتاح أبو غدة ، ط ١ ، دار البشائر الاسلامية ، بيروت ١٩٨٦.

- النسوي : محمد بن أحمد (٦٣٩هـ)

سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، دار الفكر العربي ، مصر ، ١٩٥٣ .

- ابن نظيف : ابن نظيف الحموي

التاريخ المنصوري ، تحقيق د . أبو العيد دودو ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، بدمشق ١٩٨٠ .

- النويري : شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري (٧٣٣هـ)

نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق د . محمد محمد أمين وآخر ، مركز تحقيق التراث ، ١٩٩٢ .

- الهمذاني : رشيد الدين فضل الله (٧١٦هـ)

جامع التواريخ ، ترجمة محمد صادق وآخرون ، دار أحياء الكتب العربية .

- الواحدي : أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي (٤٦٨هـ)

الوسيط في الأمثال تحقيق د . عفيف محمد عبد الرحمن ، مؤسسة دار الكتب الثقافية ، الكويت ، ١٩٧٥ .

- ابن الوردي : عمر بن مظفر بن عمر بن محمد (٧٤٩هـ)

تتمة المختصر في أخبار البشر ، تحقيق أحمد رفعت البدراوي ، دارالمعرفة ، ١٩٧٠ .

- اليونيني : الشيخ قطب الدين أبو الفتح موسى (٧٢٦هـ)

ذيل مرآة الزمان ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد الدكن .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

* المراجع المطبوعة :

- د. أحمد أحمد بدوي :

الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، ط ٢ ، دار نهضة مصر ، القاهرة .

- د. أحمد محمد عدوان :

العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي ، دار عالم الكتب ، الرياض ، ١٩٨٥.

- إسماعيل عبد العزيز الخالدي

العالم الإسلامي والغزو المغولي ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، ١٩٨٤ .

- د. بدوي طبانة :

معجم البلاغة العربية ، ط ٢ ، دار العلوم للطباعة .

- ثروت عكاشة

اعصار من الشرق ، ط ٤ ، دار المعارف ، ١٩٧٥ .

- خالد جبر :

الرسالة الفنية في العصر المملوكي الأول بمصر والشام ، رسالة جامعية ، الجامعة الأردنية ، عمان ، ١٩٩٢ .

- د. طه ثلجي الطراونة :

مملكة صفد في عهد المماليك ، ط ١ ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٢ .

- د . عبد الجليل عبد المهدي :

بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ، دار البشير ، عمان ، ١٩٨٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- د . عمر موسى باشا :

تاريخ الأدب العربي ، ط ١ ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ١٩٨٩ .

- فايز حمّاد عاشور :

العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى ، دار المعارف ، مصر .

- فرانز روزنتال :

علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة د . صالح أحمد العلي ، ط ٢ ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٢ .

- فؤاد عبد المعطي الصياد :

المغول في التاريخ ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٠ .

- د . فوزي محمد أمين :

أدب العصر المملوكي الأول ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٩٣ .

- د. محمد بن الخوجة :

عصر المماليك : الترسل وابن عبد الظاهر ، ط ١ ، تونس ، ١٩٥٦ .

- د. محمد زغلول سلام :

الأدب في العصر المملوكي ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧١ .

- د. محمد صالح القزاز

الحياةالسياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية،مطبعةالقضاء ،١٩٧٠.

- د. محمد عبد المنعم خفاجي :

الحياة الأدبية بعد سقوط بغداد حتى العصر الحديث ، ط ١ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- د. محمد كامل الفقي :

الأدب العربي في العصر المملوكي ، ط ٢ ، دار الموقف العربي للصحافة والنشر ، مصر ، ١٩٨٤ .

- محمود رزق سليم :

عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

- والتر . ج . ميشيل

لقاء ابن خلدون لتيمورلنك ، ترجمة محمد وفيق ، دار مكتبة الحياة ، بيروت .

* الدوريات :

- بشار عواد معروف ، الغزو المغولي كما صوره ياقوت الحموي ، الأقلام ، س ١، ج ١٢ ، ١٩٦٥ .

- جوزيف بدوي ، سيف الدين قلاوون ، الفكر الاستراتيجي العربي ، ع ٤ ، س١ ، ١٩٨٢ .

- حسن الأمين ، غزو المغول للدولة الخوارزمية ، العربي ، ع ١٨٨ ، ١٩٧٤ .

- ظافر الدجاني ، دولة المماليك في حكم التاريخ ، الرسالة ، ع ١٠٥، س ٣ .

- عفيف رزق ، الظاهر بيبرس البندقداري قاهر المغول (والصليبيين ، الفكر الاستراتيجي العربي ، ع ٢ ، س ١ ، ١٩٨٢ .

- د . مناهل فخر الدين فليح ، التعليم في ظل دولة المماليك ، آداب الرافدين ، ع ١٠ ، ١٩٨٩ .

- ناظم رشيد ، من آثار الغزو التتري في الأدب خلال القرنين السابع والثامن، آداب الرافدين ، ع ١٢ ، ١٩٨٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ABSTRACT

The Echo of the Mongul Invasion in the Prose of 7th Century Until the Beginning of 9th Century

By ٤٧١٨٤٩

Thekrayat S. M. Hamamreh

Supervisor

Prof. Mahmoud Ibrahim

This thesis dealt with the Mongul invasion from the seventh Moslem century until the beginnings of the nineth century.

The thesis objective is to highlight and to present the value of the prose literature during the above mentioned period, because this literature bears historical identity and an important documentation of the events which took place at that time.

Other objectives are to present the prominent authors and writers during that period. The thesis consists of three chapters and an introduction, I have referred in the prefix to the political, socio-economic and cultural circumstances of that period.

In the first chapter, I traced the literary and the historical sources and the biographies and the travels literature to monitor the invasion i.e. wars, destruction and devastation. I also mentioned the most important correspondences between the Muslim Sultans and Mongul kings.

In the second chapter I dealt with the prose literature during the Mongul's invasion, in terms of the context, as I explored the call for Jehad (Holy war) and explained the images of the leader, the Islamic Army, victories and the force of the enemy. This was

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

followed by a research about the Islamic city prior and after the Mongul's invasion.

In the third chapter, I reviewed the rich characteristics, particularly quotations from the (Holy Quran) and Prophetic tradition (Hadith) and the influence of the Arabic poetry. I also talked about the figures of speech and the use of this style in that period's literature.

In the conclusion I reviewed the most important results which were mainfistated in this research such as: the compay the prose literature to the invasion, highlighting the reasons of the invasion and its affects on the Muslims, their cities and their fortified bordleline cities in addition to the impacts of the Mongul's invasion on the aspects of literature and on the writers during that period.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit